عبد الجواد خفاجى

رواية

الحـــــــذاء

الطبعة الأولى 2. . 2م

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

الحذاء: رواية
المؤلف: عبد الجواد خفاجى
الاصدار: على نفقة المؤلف
تاريخ الاصدار: يناير / 2. . 2
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: 9777 /2. . 2
تمكيت وإخراج: خلود عبد الجواد
غلاف: وليد البتشتى
عنوان المؤلف: قنا – أبوتشت – ش تركى – عمارة بشرى

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

من قصيدة (تأملات فى كتاب الموتى)
للشاعر التونسى: محجوب العيارى

بلدٌ كَلا بلدٍ
فضـــاءٌ .. لا فضـــاءٌ
جثـــةٌ .. ومُشَيعونْ
بلدٌ كَلا بلدٍ
وأعراسٌ بقافلةٍ من الموتىٰ،
وأعيادٌ بِلا فَرَحٍ يُضِيء ..
وياسَمينْ
بلدٌ كَلا بلدٍ:
هل أدعياءُ أنبياءُ،
وأنبياءُ كلاجئينْ ؟!

الإهـــــــــداء

إلى أرواحكم التى فى البرد والمخمصة ،
.. سأكون واقعياً جداً
وأدعوكم إلى مزيد من العناء.

عبد الجواد خفاجى

تنويه لابد منه

إن أية محكمة لأى نصٍ أدبى تظل أبداً محكمةً بغيرِ شرعية، حتى وإن استأثرتْ لنفسها ببعض الصلاحيات المزعومة.

لذلك .. أنوه بأن الخطاب الروائى فى هذا الكتاب يتمتع باستقلاليته وسيادته وسلطاته الخاصة، مثلما إن أى خطاب آخر: دينى أو سياسى أو اجتماعى له نفس الركائز الثلاث التى يتمتع بها.

ولذلك أيضاً أحذر من استغلال أى خطاب آخر سواءً دينى أو سياسى أو اجتماعى: عرفى أو أخلاقى، لممارسة سيادة من نوع ما على سيادة الخطاب الروائى فى هذا الكتاب واستقلاليته.

وبغير هذا ستصبح كل قراءة أو تفسير أو تأويل للنص الروائى مجرد محاكمة حقيقية لأحداث وهمية، وهذا هو العبث نفسه، فى الوقت الذى ينأى فيه النص عن أى عبث.

.. من ناحية أخرى قد يُصبح التعصب ضدَ لغة الخطاب الروائى فى هذا الكتاب تجميلاً مزعوماً لواقع قبيح تترصده الرواية لتعريه أمام نفسه، وبلغة القبح نفسها التى يمارسها الواقع نفسه .. إننى ككاتب روائى لا أميل إلى تجميل الذى يبارزنى بقبحه .. كما أننى لا أقبل أى انتقاص من سيادة الخطاب الأدبى واستقلاليته الذى هو بالضرورة خطاب موازٍ لأى خطاب آخر فى هذا المجتمع أو ذاك.

عبد الجواد خفاجى

لم

أكن غير فسيل صغير غرسه الجدُّ حين حمل بعض القفف المحشوة بالقراقيش، والجبن القريش، وكثير من الحلبة، والكمون والدقة، وركب قطار الصعيد العائد إلى قاهرة المعزِّ لدين اللـــه وحين استقبله الابن في "باب الحديد" بصحبة زميل له حملوا القفف الثلاث وساروا من باب الحديد إلي شارع "كلوت بك" إلي "العتبة" "فالأزهر"، ثم "الدَّرَّاسة" ومنها إلي "قايتباي" حيث يسكن الابن طالب الأزهر .. وفي الصباح كان كل شيء معداً لإتمام زواج الشيخ "أبوالبصل"علي "فتحية" بنت الشاويش "عبدالعليم".

هذه بداية الفسيل، إذ انغرست في إحدى حواري "قايتباي" بذرته ليعود طفلاً، لم يتجاوز عامه الثاني، وقد اكتفي الأب من دراسة الأزهر، دون أن يحصل علي "العالمية" ودون أن ينتظر فرصة ما للعمل أو الإقامة بالقاهرة، عاد بعد أن وصله مكتوب أفاد بأن أباه مسافر للحجاز، وعليه أن يأتي ليشارك الأهلَ أفراحهم .. عاد عازماً علي أن يبقي بين الأهل، حيث الأطيان، والأبقار، والأغنام، وحيث الثراء والنعيم، ليجد فرصة أو مناسبة يرتدي فيها القفطان والجبة والعمامة ذات الطربوش الأحمر والشاش المزهَّر، أو ليذهب إلي المسجد ليشنِّف آذان أهل القرية بما قـــال الله والرســـول والتابعون، عاد بزوجة، وبعض المصاحف، وكثير من الحقائب، والكراكيب،

أتذكَّر أننا وصلنا مساءً إلي محطة "فرشوط" وكانت مظلمة تماماً، وكان علينا أن نجلس علي رصيف المحطة بين الحقائب والكراكيب حتى يعود أبي من مشوار صغير إلي الموقف .. وكان أن عاد بسيارة عرفت فيما بعد أنها من بقايا الإنجليز .. حملنا هو والسائق وأمي إلي السيارة بعد أن شحنوا متاعهم، وسارت بنا السيـــارة في طريق متعرجة متربة، يعمها الظلام و الهسيس وكانت فيما أتذكر عن يميننا ترعة فيما كان عن شمالنا زرع طويل. ولم يكن بمقدمة السيارة غير فانوس وحيد، كثيراً ما كان ينطفئ، لينزل السائق

توقفت السيارة أخيراً أمام بيت ريفى كبير، ورأيت علي ضوء القمر حوائطه العريضة الشاهقة، وبوابته الضخمة وكان مدهوناً بالجير، ومرسوماً حول بوابتـــه كثيرٌ من الأسود والكلاب، والنخيل، والجمال، وثمة ما كان مربوطاً بجذع النخلة .. رأيته في الصباح .. كان سبعاً وكانت ثمة كتابة لم أكن لأقرأها إلا عندما كبرت ودخلت المدرسة .. كنت أطالعها كل يوم وأحاول فك طلسمها، حتى عرفت أخيراً أن المكتوب علي اليمين هو "حجَّ وزار" وأن المكتوب علي الشمال أسفل النخلة تماماً هو: "هذا سبع مربوط في النخلة" وكنت كثيراً ما أسأل أمـــي: "من الذي ربط السبع؟" وفيما بدا أنها لم تكن تفهمني، حتى سألت جدتي فقالت: "جدُّك".

طرقت أمي البوابة الكبيرة .. فُتِح الباب .. وأتذكر أنني سمعت أصواتا جافة غليظة، تنِمُّ عن قسوة وجفوة وأتذكر أن أول ما قالته لي أمي بعد دخولنا: "أوع الجمل يعضَّك" .. وأتذكر أنها صرخت صرخة كبيرة عندما زام الكلب زومة عالية، ونبح، ولم يكن بالبيت كله سوي

هكذا كانت البداية، وأتذكر أننا لم نغادر القرية ثانية، حتى بعد عودة جدِّي من الحجاز، وأتذكر أنه رحل إلى ذمة الله بعد ما يقرب من عامين، وأتذكر أيضاً أن عمي الأكبر بعد سبعة أيام من رحيل جدي جمع حوله رهطاً من أقاربنا، وكانوا جالسين في سقيفة البيت، وكان أبي جالساً بينهم، وأتذكر أنهم أحضروا طربوش أبي الأحمر، وعمامته البيضاء، والجبة، والمصحف، والقفطان، ووضعوها جميعها علي منديل أبيض مخطَّطٍ، وقالوا: "من يأخذ هؤلاء لا يأخذ الطِّين" ولما

أتذكر أن البداية كانت هكذا .. و أتذكر أنه كان عليَّ – يا الله – أن أواجه كلَّ هذا المصير المطَّين: مزيداً من العداوة والكراهية بين أبي وأخويه وبيني وبين بقية أبناء العمومة .. عرف الفقر طريقه إلي الدار الكبيرة، خيَّم علي أسقف البيوت، بينما كانت البَرَكة تتضاءل يوماً بعد يوم .. كيف أصبح الفسيل واحداً من عشرة فسائل أخري لرجل لا يملك إلا مُرَتَّبه الضئيل الذي يتقاضاه من "الأوقاف" وبعض قراريط مرهونة، وثمة بعض الأرانب، والبط، والفراريج، وأربعة حوائط مسقوفة بالبوص؟

هكذا يمكنني أن أتذكر الماضي علي نحو له خصوصيته التي ربما لا تعني أحداً سواي لكنما – وعلي نحو مغاير – أري أن الله خلق الكون علي نحو مغاير؛ فكلُّ شيء يخص كلَّ شيء. لست أدري لماذا تذكرت ذلك الماضي علي هذا النحو ؟ وأنا عائد إلي قريتي بعد غياب متقطع دام أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وكنت بصحبة زوجتي وطفلتي، وثلاث كراتين كتب، وحقيبة واحدة وبعض الكراكيب، وخمس شهادات تقدير من هيئة قصور الثقافة، وشهادة جامعية في الآداب والتربية قلت لنفسي إنها فرصة للراحة من عناء الاطلاع في الكتب،

ولماذا لا أُفرغ رأسي من كل مـــا قـــالوه ؟ .. قـــالوا: "اقـــــرأ" فقرأت، وقالوا: "امشِ على الخط المستقيم" فمشيت، لكنما كنت أكتشف مع الأيام أن الخطوط المستقيمة مفضية دائما إلي انحناء مفاجئ، إلي أن عَلِمْتها كما عَلِمَها " أينشتين ": إن الاستقامة مسألة نـــسبية، وإن ما يمكن أن ندَّعيه خطًّاً مستقيما هو في الحقيقة ذلك الخط المـــوازي للكرة الأرضية. هنالـــك بدأت السير في خطوط منحنيـــة، وقد فهمـــت أن كل شيء في الكون يبدو مستديراً، وأن التاريخ نفْسَه يبدو كـــذلك، هل كنت في حاجة إذن لأن أفرغ رأسي بضعة أيام قبل أن أستلم عملي الجديد، ليتني أستسلم لهذه الرغبة طويلاً .. ليتنـــي إلـــي حـــدٍ كبيـــر استطعت أن أقايض الحياة بما علمتُ ببعض الهدوء، ليـــتهم يعلمـــون الآن أن الكفر بكل ما علمت لا يقل حلاوة عن الإيمان بكل ما يوقنون. وكل شيء كان يمكن أن يكون غير ذلك لو أخذوا برأيي .. هم يقفزون من مقاعد الوزارات إلي مقاعد البرلمان، ونحن نهـــبط مـــن كلِّيـــات

بِعْتُ كلَّ شيء لأسدد ديوني قبل الرحيل، ونسيت صاحب السكن الذي فاجأني بأنه يعلم أنني أنهيت دراستي، وأنني قريباً سأستلم الوظيفة في سيناء .. لم أستطع إنكار الأمر، وصعدت معه إلي الشقة، وطرقت الباب .. أعدَّت لنا الزوجة قليلاً من البطاطس المحمرة، وكوبين من الشاي، ولم يكن من سجائر معي، فأخذت واحدة منه .. أشعلتها وسحبت نَفَسا، وفي الثاني قلت له: "لم يعد في الشقة غير امرأتي والسرير، وهذه الحصيرة التي نجلس عليها"، وطلبتُ منه أن يترك لي المرأة والحصيرة ويأخذ السرير .. أتذكر أن السرير كان في حدود المديونية لولا أنني رجوته أن يقرضني خمسة جنيهات .. حقيقة كل شيء تم بسهولة .. أحضر عربة مكشوفة، وحمل السرير المفكوك عليها، وأعطاني الـ "خمسة جنيهات" ومضي .. أتذكر أنني اشتريت علبة سجائر، وبالباقي شاياً وسكراً، ودخلت إلي زوجتي .. نظرت في وجهها طويلاً، وابتسمت. قالت بامتعاض: "لم يعد غير الكتب!" .. هززت رأسي، وقلت: "سأبيعها بعد أن أفرغ من تأليف الكتاب ..

لم يكن في رأسي غير أن أُنهي كتابي الأخيـــر، لـــذلك حلقْـــتُ رأسي بالمقص، وبللتُ ما تبقَّي من الشعر بالماء والصابون، وطلبـــت من زوجتي أن تُجْهِـــز عليه بماكينة حلاقة الذقن، ثم طلبت منها بعـــد ذلك أن تُحضِر المرآة، ورحت أنظر رأسي لأول مرة في حيـــاتي بـــلا شعر .. أعطيتها المرآة، وطلبت منها ألا تدخل الحجرة بنعليها لأننـــي كنت قد طهرت الغرفـــة، وغسلت الحصيرة، ورصصت فوقها المراجع الدينية التي تخص الكتاب الذي أؤلفه. أتـــذكر أن حادثـــاً ســـعيداً لـــم تصادفـــه حياتي كثيراً حدث ذلك اليوم، إذ وقفت سيارة فارهة تحـــت العمارة، ونزل منها شاب وسيم .. دعتني زوجتي لرؤيـــة الـــسيارة، والشاب الذي نزل منها، نظرتُ من الشرفة، فعرفتـــه. انتظـــرت لكـــي أشاهده، وهو يسأل المارة، وبعد خمس دقائق وجدته يدخـــل العمارة، ففتحت له الباب:

- أيها الصديق القديم .. متي جئت من الكويت؟
- منذ ثلاثة أيام.
- لماذا حضرتَ هذه الأيام؟
- أنت نائم علي أذنيك .. صدَّام خرَّبها .

- آه .. مشاكل الغزو .. وهل ستعود مرة أخري؟

- قلت لك صدَّام خرَّبها.

أتذكر أنه نظر إلي الحصيرة والكتب والحوائط، ووجهي، ثم جلس، شرب الشاي معي وقال: "وحشتني كثيراً، لقد سألت عنك في البلد فقالوا لي إنك تزوجت، وإنك هنا في قنا .. وأعطوني العنوان، فركبت سيارتي وأتيت لكي أقول لك "مبروك".

– وها أنت قد قلتها.

- أخيراً تزوجت؟!

- نعم .. عقبي لك

- صح النوم يا أستاذ .. أنا متزوج من سنتين.

- آآ .. نسيت.

أخرج من جيبه خمس وريقات، وأعطاها لامرأتي وهو يردد: "ألف مبروك".. انسلَّتْ زوجتي من جانبنا، وقد أخذت المائة جنيه وخرجتْ إلي شقة الجيران .. سألني عن الكتب الكثيرة تلك فقلت إنني بصدد تأليف كتاب جديد. ضحك بسخرية، وقال: "الله يخرب بيت مخك .. كنت معنا في الكويت تملأ الغرفة بأطنان الورق، وتسهر الليل كله، وفي الصباح كنا نراك نائما علي أوراقك، وكنت تظل هكذا حتى عودَتِنا من العمل" فقلت: "من الصعوبة أن يتخلى المرء عن عاداته السيئة " وسألته عن سيارته فقال: "إنها مرسيدس وإنه دفع عشرين ألفاً للجمارك" وكان ابن الجيران قد اشتري الغداء كما طلبت منه

كانت السيارة قد وصلت بنا إلي مشارف القرية، وكنت قد نويت أن أقيم في منزل أهل زوجتي ذي الغرفتين الاثنتين، وهل كان أمامي غير ذلك ؟ وقد كنت غير راغب في الإقامة في بيت والدي مثلما أنه وبعدما حضرت من الكويت – ولم يكن لقاؤنا قد دام أكثر من أسبوع واحد – قرر كل منا بعدها أن يهجر الآخر.

وكنت قد أفضيت لزوجتي برغبتي هذه، وكانت قد وافقت، وعندما وصلنا إلي القرية طلبتُ من السائق التوقف أمام بيت صهري، وكان عليَّ أن أنزل الكراتين والحقيبة والكراكيب وأن أحملها إلي بيت لم نكن قد استأذنَّا أحداً للإقامة فيه. أتذكر أنني أقمت ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع كنت قد صادفت صديقاً قديماً، أجَّر لي شقة في عمارة حكومية وحيدة تقع غرب الطريق، ولم يكن يجاورها من جهاتها الثلاث الأخرى غير الصحراء، وكانت بلا ماء وكهرباء، ولم يكن أحد قد سكنها بعد، وكانت الشقق بلا حوائط داخلية، وكنت إلي حدٍّ ما قد ارتضيت الإقامة بها. وهكذا كان عليَّ أن أنقل الكراتين والحقيبة والحصيرة وبعض الكراكيب الأخرى إلي الشقة الجديدة، ثم عدت أخيراً لأحمل طفلتي وأعود بزوجتي إلي عُشَّها الجديد .

في الصباح

كنت قد جهزت صنارة، وذهبت إلي الغيط وأتذكر أنني قضيت اليوم كله متحملاً الجوع، مـــع الخضرة، والوحدة، والصمت الجميل. وأتذكر أنني حتى منتصف النهار لم أكن قد اصطدت سوى سمكة صغيرة واحدة، فيما لاحظت أن مياه الترعة ضحلة، ومغطاة بالطحالب والعشب و أوراق الصفصاف .. وكان أحد الفلاحين قد توقف بحمارته قُبَالتي تماماً علي الجهة الأخـــرى من الترعة، ظـــل ناظراً للحظات إليَّ ثم قال: "اشتر لك كيلو سمك، بدل البهدلة هذه" ولمَّا كنت غير راغب في مخاطبة البشر، لم أجبه، وقد كنت مستسلماً تماما لتداعيات الذاكرة .. وقد كنت جالساً تماماً علي شطِّ الخليج. وفيما كان الهواء قد بدأ يسخن، كنت اسحب الشصّ من الماء الراكد، واسترخيت تحت صفصافة عجوز .. ولم أشأ أن أصرف

وأجهشت للتوباد حين رأيتـــــه وكبرَّ للرحمن حين رآنـــــــــي
وأذرفت دمع العين مني صبابـــة ونادي بأعلى صوته فدعـــــاني
فقلت له أين الذيـــن عهدتـــهـــم حواليك في خصب وطول زمـــان
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقي علي الحدثان؟

لست أدري لماذا كان هذا الرجل يطاردني بأبياتـــه هـــذه كلمـــا جلست وحيداً علي شط الخليج، وألقيت بصنارتى في المـــاء .. كنـــت أحياناً أتلهي عن سماع أبياته ببيت لشاعر آخر يقول:

ثاوٍ على صخر أصم، وليت لي قلبا كهذى الصخرة الصمـــاء

هكذا – في الغالب الأعم – كانت جلـــستي جبـــالاً وصـــخوراً، لكنني إذ أستدير برأسي عن البحـــر تطـــالعني الحـــضارة الأوروبيـــة المستوردة .. وفيما كنت أقرأ مذ نعومـــة الأظفـــار عـــن الحـــضارة الفرعونية، والبابلية و السومرية، وما إلـــي ذلـــك حتـــى الحـــضارة الإسلامية .. كنا نقرأ شذراتٍ عن الأهرام والقبور والرِّقـــاع وعظـــام الموتى، والغزوات، والسيوف المهندة .. فيما كنا نقرأ لم نكن نلحـــظ

وكان قد داخلني يقين أن الحياة في الريف لم تعد مناسبة للعيش تماماً.. لست أدري كيف تخيلت خارطة الريف – في تلــك اللحظــة – فردة من حذاء نتن تسكنه الأَرَضَة والديدان، وتساءلت كيــف لــي أن أعيش هاهنا وقد امتلأت الأرض بأرجلٍ لم أعد أعرف أصحابها، ولــم أعد أنا كما كنت قابلاً للعيش بين أشباح القــري، وخزعبيلاتهــا ؟ .. صحيح أن ثمة تغيراً ما حدث بعد دخول الكهرباء إلى البيوت، وبعدما عرفت الخرسانة طريقها إلى العشش، لكنما هل كان ذلك مدعاة لي لأن أرغب العيش في هذه الخراريج المتقيحة في جسد الخضار .. تنتشر موصولة بالأحقاد. والدماء .. محروسة تماماً بوجوه متكلسة كالحــة، ورؤوس جامدة كفصوص الطين اليابس .. ثمة مدارس هاهنا .. لكنما هل العبرة بكونها هاهنا، أو أن ما يعنيني شيء مختلف تماماً يتعلــق

كنتُ

قد استلمت التعيين فعلاً أمام الموظف المختص بإدارة "أبوتشت" التعليمية، وكان قد أكد على ضرورة أن ألتقي بواحدٍ من الموجِّهين المختصين ليقوم باختيار المدرسة التي سأبدأ العمل بها ... وكان علىَّ في المساء أن أصطحب واحداً من الأصدقاء القدامى، كان يقرض الشعر الكلاسيكي ويعمل مدرساً بالمدارس الابتدائية. قال

عَلَّق الموجـــه بقوله "خســـارة الطـــب والهندسة"، فقلت: "خسارة" وسألني: "لماذا تركتهما؟" فقلت "الظروف" وعاد يسأل: "أية ظروف؟" و أجبت "ظروف والدي التي لم تكن تمكنه من الإنفاق علىَّ " ورأيت أن أسأله: "أين ستسلمني العمل؟" و أجاب: "نجع أبوشلوف" وكنت قد نظرت إلي صديقي مستفسراً فقال: "إنه في الجهة الشرقية في أقصي الجنوب" وكنت قد اعترضت: "لماذا أقصي الجنوب الشرقي "

لم أكن مقتنعاً أن ثمة علاقة بين رغبتي في التعيين في سيناء، وبين دفتر المواليد .. وتذكرت واحداً من زملاء الدراسة ولدته أمه في "باريس" وسألتها "هل ستعينه الوزارة في فرنسا؟" وقالت: "قل كلامك هذا للوزير"، قلت لها: "إنني ولدت في القاهرة لكن أبي تجشم عناء السفر من القاهرة إلي "أبوتشت" ليسجل اسمي في مواليدها " وكنت راغباً في الانصراف دون استلام الورقة، وقالت مرة أخري: "أنت حرٌّ " وقلت: "لست حراً .. إنه الوزير حرٌّ فينا".. استلمت الورقة، ووقَّعتُ لها في الدفتر، ومضيت. وكان صديقي الشاعر قد لاحظ شرودي فقال: "كن واقعياً" وأضاف: " إن الموظف الجديد مطية الحكومة"، و أضاف الموجه: "عام دراسي واحد تتحمله بالطول أو بالعرض .. بعده سأحاول نقلك إلي مدرسة أخرى قريبة" وكنت قد سألته إن كان بالإمكان العثــور على شقه شاغرة في "نجع أبوشلوف" فضحك , وقال: "هناك عشش، وخرائب" وكان عليَّ أن أعطيه الأوراق .. أخذها مني دون اكتراث، وكتب في أسفل الورقة الأولي: "أبوشلوف

كانت "الوحدة المجمعة" رائعة فى الليل، نذهب إليها لمـــشاهدة أفلام السينما التي كانت تعرض فى قاعة المسرح فى وقت لم يكن فى بيوتنا غير قناديل الكيروسين، وكان العمدة وحده يملك "راديو"

كان الزعيم يطالعنا علي الشاشـــة قبل عرض الفيلم، يرفـــع يده اليمني ويفرد كفه عالية ويلوح لنا، كان وجهه رائعـــاً، ومـــشرقاً، وكنا نقف جميعاً في القاعة ونبدأ بالهتاف: "عـــاش الـــرئيس جمـــال عبدالناصر". لست أدري لماذا تذكرت كل ذلك، و أنا أعدو في الظـــلام، وكان خوفي قد زاد، و ثمة إحساس بدأ يخامرني أن كائنات ما تجري خلفي، غير أن رائحة الغبار كانت تصـــل إلي أنفي، ومـــن ثـــم كنـــت أعطس، وكانت عيناي تدمعان، وكانت ضربات قلبي تتابع بعنفٍ، بينما كانت قدماي تصطدمان بالأحجار الكبيرة الناتئة فوق الرمال. وفي وقت بدت التبَّة كأنها بلا نهاية، كنت قد بدأت أحس بالأرض تنحدر تحتي .. وشعرت بنفسي كما لو كنت أهبط ... حتى لأني انكفأت فجأة ... على أرض صلبة، ولم تكن ثمة أحجار أو رمال .. وكنت قد سمعت أصوات كلاب تعدو نحوي ... وكانت ثمة حوائط بدأت تعتـــرض عـــدْوِي ... وكنت قد لاحظت أنني في "الوحدة المجمعة"، وأنها مطفأة تماماً وخالية من حياة ... ولم يكن غير الكـــلاب، وكـــان أول مـــا واجهتـــه بـــاب المشرحة، كان مشرعاً، وكانت الريح تضرب في خلائها، وثمة صـــور لميِّتين بدأت تخامر رأسي، وثمة صفير ينبعث حولي ... وكنت مرتعباً، وكانت قدمي المكسورة قد بدأت تـــؤلمني، فيمـــا أحســـست بـــصدري يؤلمني أيضاً، وكنت أسمعه يصدر صوتاً كصفير ناي بعيد. اســـتدرت سريعاً و انعطفت إلي داخـــل المستـــشفي... كـــل الأبـــواب موصـــدةً

يبدو مهدماً، فيما بدا الصباح ضبابياً، وكانت المدرسة محاطة بالبيوت الطينية والبوص وقشِّ القصب، وثمة بعض الجواميس كانت رابضة فوق روثها، ولم يكن غير طريق ضيق يخترق البيوت يمر أمام باب المدرسة الوحيد ... ظننتها في البداية واحدة من هذى البيوت، لولا أنها كانت مطلية بالجير ... ومن ثم نظرت إلي أعلي البوابة الحديدية ... كانت لافتة سوداء باهتة، وكانت ثمة كتابة عليها، لولا أن بعض الحروف تآكلت، ولم تلحظ عيناي في وسط اللوحة غير حرف " م ... " مكتوب بخط عريض، هنالك خمَّنت أن تكون الكلمة " مدرسة" .. ولم يكن يقيني قد ثَبُت تماماً، وكانت عيناي قد التقطتا في أعلي اللوحة كلمات متقطعة أخري وكانت هكذا: "وز.ر... تر..و...عليم" هنالك ثبت يقيني أنني أمام مدرسة، وأن هذه الحروف المتناثرة تعني إلي حدٍ أكيد: "وزارة التربية والتعليم". وكنت قد لاحظت أيضاً ثلاثة شبابيك حديدية كبيرة، وثلاث درَّاجات خلف الباب، وممراً ضيقاً يمر به رجل رثُّ الثياب، وكنت قد تخيلت وزير التعليم على شاشة التلفاز، وكان يتحدث عن تكنولوجيا التعليم، وعن المدارس النموذجية، وكان مبتسماً، فيما بدا وجهه كوجه قردٍ عجوز، وكانت ثمة بعض البراغيث قد أخذت مرعاها فوق قفاي، وكان ثم تلميذ يحمل حقيبة خلف كتفيه خارجاً من باب على يمين الممر، هنالك

أتذكر أنه تحدث معي أثناء شرب الشاي في موضوعات شـــتي، قال إنه يرثى لحال اللغة العربية، وترحم علي أيام زمان عندما كانـــت الكَسْرةُ كسرةً، والفتحةُ فتحةً، ولم يكن كما هو حادث الآن "سَكِّنْ تسْلَم" ولم تكن ... قاطعته: "ولم تكن المدارس تُخَـــرِّج أميـــين، يحملـــون شهادات"، والتقط الخيط، وقال: "أي والله" وأضاف: "إن الكتاتيب كانت قديماً تُخرِّج متعلمين" وأكَّد أن عبد الودود العامل هذا الـــذي أحـــضر الشاي لم يتعلم أكثر من عام واحد في الكُتـــَّاب وهو صغير، ومع هذا فإن خطَّه أحسن من أي خطٍّ في المدرسة، وإنه علي حالته هذه يحفظ القرآن ويجيد الكتابة الإملائية بالتشكيل، في حين أن مـــدرس اللغـــة العربية العام الماضي فشل في قراءة جملة "حر دلـــله الله"، وأنه لـــم يكن يصلي، ولم يكن يحفظ شيئاً من القرآن، وكان يتلعثم في النطـــق، غير أنه وفي آخر العام عندما طلبوا منه أن يجيب عن أسئلة امتحـــان اللغة العربية كانت إجابته خاطئة، خاصة القواعد، وإنه – الله يخـــرب بيته – ضيَّع التلاميذ.

وأتذكر أنني بعد أن شربت الشاي استأنفت الحديث بعد أن أشعل سيجارة وقال: "إن عبدالناصر كان ديكتاتوراً، وضـــيع البلـــد، وجلـــب النكسة، وإنه – الله يسامحه – أمَّمَ من عائلته مائتي فـــدان .. وإنـــه رغم ذلك لا يحب الكلام في السياسة، خاصة في المدارس لخطورة هذا الأمر، لأن مباحث أمن الدولة صاحية، وفاضيـــــة للكـــلام الفاضـــى".

لست أدري كيف سيكون احتدادي لو تكلمت، وكان هو قد لاحظ أن صمتي ينمُّ عن رغبة في الاحتداد، فقال: "كفاناً كلاماً في السياسة، ودَعْنِي أرحب بك باعتباري وكيلاً للمدرسة، وقائماً بالنـــِّظارة فيهـــا" وكنت قد سألته عن مكتب الناظر، فأشار إلي المكتـــب الـــذي يجلـــس عليه، وقام .. سحبني من يدي وقال: دعني أعرِّفك علي المدرسة.

كان فناء المدرسة ضيقاً جداً، وطويلاً ومحاطاً بـــسور مرتفـــع، وكانت المسافة بين السور والحجرات الدراسية تكفي لمـــرور عربـــة الكارو التي تقع في نهاية السور، وكان أحد العمـــال يمـــسك بطـــرف خرطوم مياه، واقفاً بجوار عربة الكـــارو ومنهمكـــاً فـــي ريِّ بعـــض النباتات الصغيرة تحت السور، وكان أن لاحظ الوكيل أنني أمعن النظر إلي هذا العامل، فقال: "ما أكثر العمال في هذه المدرسة، ومع ذلك هم لا يفعلون شيئاً " وسألني: "هل تتصور أن هذا العامل لا يفعـــل شـــيئاً طوال اليوم غير ري هذه النبتة التي تحت رجليه؟" وســـمعته يقهقـــه ويضيف: "يسقي الشتلات طـــوال اليوم ثم يدهسها بعربته الكارو آخر النهار" فهمت أن هذه العربة تخص هـــذا الرجل، وســـــألت الوكيـــل:

وعندما حضرت "الأبلة" أمرها بعنف: "هاتي السكين" .. ولم تغب كثيراً حتى عادت بسكين تصلح تماماً لذبح الكـــرات، ووجدتـــه ينـــيخ بجسده علي الأرض، ويضع الكرة بين رجليه ومن ثم يقوم بذبحها .. لكنما " الأبلة " – وفيما يبدو – لم تعجبها الطريقـــة فقالـــت: "قَطِّعْهـــا

انصرف التلاميذ الخمسة هلعاً، بينما جلس كرم تحت السور وراح يبكي كطفل صغير .. أشار إليه الوكيل بيده وقال لي ": هذا هو مدرس الإنجليزية ".

وكنا قد وصلنا إلي نهاية الجهة الشرقية، وكان لا بد أن نستدير مرة أخري،بَيْد أن عيناي كانتا لا تزالان مثبتتين علي مدرس اللغة الإنجليزية، فيما كنت أُصغي لشهقاته المتواصلة، وكنت قد سمعته يردد: "والله لأكتب شكوى للوزير، ولازم آخذ بثأر الكرة" فيما كان الوكيل يرد عليه: "أعلي ما في خيلك اركبه .. يلعن أبوك وأبو الوزير .. وزير سافل مثلك". حاولت أن أصرف الوكيل عن مواصلة اللعنات، فسألته عن المكتبة فقال: " عدد حجرات المدرسة محدود وقد تعذر وجود مكتبة " فسألته عن الأدوات الرياضية فقال مبتسماً: " كان عندنا قُبَّة للبيسبول، وصالة للجمباز، ولكن ..... " واستدار برأسه نحوي وكفَّ عن الابتسام، وحدق في وجهي ثم قال: " الأستاذ يعيش في أمريكا ؟!" وأضاف بعد فترة صمت: " كلامك يبعد عن الواقع .. أما تري المدرسة بلا فناء ؟" فقلت: " صدقت " وحيَّاني بعدها بسيجارة، وكنا قد وصلنا إلي الممر الأمامي حين قال: " هذه هي المدرسة " وراح يقص عليَّ قصصاً كثيرة عن بداية هذه المدرسة، وكيف أنها بُنيت طوبة طوبة بالجهود الذاتية ،وكيف أنه هو وحده تحمَّل عناء

اصطدم جسدى لحظة الخروج من الباب برجل في زيٍّ رسمي .. كان حليق الشارب، له أوداج نافرة، وبشرة محمرة، وكان إلي حد ما يبدو مهذباً. ابتسم لي ما أن التقت أنظارنا، وفرد يده لي فصافحته .. ظل محتفظاً بيدي لفترة، ثم سحبها وخرج معي .. قال إنه أخي في الله، وإن اسمه " عبدالصبور " وإنه مقاول خرسانة ولديه خشب وحديد وسيارة نقل صغيرة ، وإنه زميل ويقوم بتدريس مادة التربية الزراعية في المدرسة، ودعاني للجلوس تحت السور. كانت هناك دكَّة قديمة، وثمة شجرة نبق خارج السور تظلها .. جلسنا تحتها وأشار إلي تلميذ كان يمر بجوارنا، وطلب منه أن يبلغ عبد الودود أننا بحاجة للشاي. وقال إنه يُفضِّل أن يشرب الشاي في البوفيه حيث الفحم و المعسل وما إلي ذلك، وسألني ماذا أدخن، فقلت: " السجائر " وقال إن مشكلته أنه يريد أن يقلع عن التدخين، وقلت إن ذلك أمر هيِّن، والدليل أنني أنا شخصياً أقلعت عن التدخين خمسين مرة في السابق. فضحك وقال: " يبدو أنك خفيف الدم " فشكرته وكنت مستمتعاً بالجلوس تحت السدرة، وكانت رجلاي ممدودتين في الظلِّ، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلاً، وحرارة الجو بدأت ترتفع، وكان عليَّ رغم استمتاعي بالطقس

نزلت إلي مكتب الوكيل وكنت أود أن أتسلم جدول الحصص التي سأقوم بتدريسها. كان وحيداً في مكتبه ولم يكن قد انتهي من إعداد الجدول بعد. قال لي إنه يود أن ينصحني باعتباري مدرساً جديداً وباعتباري غريباً عن البلد، ولأنني – كما قال – طيب جداً. فشكرته وأصغيت له، قال: إنه استاء جداً عندما وجدني جالساً مع عبدالصبور، وإنني لكي أكسب احترام الآخرين يجب ألا أجلس مع عبدالصبور مرة أخري. وأضاف: " إن عبدالصبور شاذ جنسياً " وحمد الله أن المدرسة لا يوجد بها متسع لحجرة تربية زراعية حتى لا يفتحها ابن الكلب " كراخانة ". فشكرته علي نصائحه هذه ووعدته ألا أجلس مع هذا الشاذ مرة أخري، وطلبت منه أن يعهد إلىَّ ببعض الحصص ريثما ينتهى من الجدول. فقال: " لا داعي للاستعجال " وأضاف إنه سينتهى من إعداد الجدول في غضون يوم أو اثنين، وإنه كان يود أن ينتهي منه قبل بداية الدراسة لولا أن أحداً من "أولاد

فقلت: " معك حق " وشربت الينسون.
هكذا مضي ذاك اليوم ثقيلاً مملاً وغريباً إلي حد ما. وقَّعتُ آخر النهار في خانة الانصراف. وكان الوكيل قد طلب مني أن أُوقِّع له علي بعض الأوراق فوقعت. وقال: " أنت من الآن مشرفٌ علي الصحافة والمسرح والإذاعة " فقلت: " لم نتفق علي الإذاعة " فقال: " لقد

خرجت من باب المدرسة إلي الطريق، وكنت قد صادفت وأنا أدلف إلي الطريق الأستاذ " كرم " واقفاً أمام الباب وكان واضحاً أن في عينيه آثار دموع وكان يردد: " يا أنا يا هو " وكان الوكيل يقف خلف الباب منتظراً زوجته، فردَّ عليه : " روح العب في البِلِىْ " وقال موجهاً حديثه إليَّ: " هات له بِلْية معاك يا شاعر " وكان لابد أن أتدخل بشكل إيجابي فقلت لكرم: " غداً سأحضر لك كرة أحسن من كرتك التي قطعها لك الوكيل " وأمام هذا الالتزام كان عليَّ أن أعود في الغد حاملاً كرة ملونةً، هنالك مسح كرم دموعه، وسحب درَّاجته، ومشي خلفي لبضع خطوات، ولأني كنت بحاجة لأي شخص يُعرِّفني طريق العودة توقفت، وطلبت من كرم الصحبة، وطلبت منه أن يشرح لي الطرق والاتجاهات من المدرسة وحتى محطة القطار، وأمام هذا أنزل كرم ساقه من فوق درَّاجته، ومشي بجواري ساحباً إياها.

عبَّر كرم عن انطباعه نحوي قائلاً: "فيما يبدو أنك شخص طيب" غير أن أغرب ما سمعته منه بعد ذلك وَصْفُهُ لي بأنني "أليف"، وكنت قد سألته عن مؤهله فقال إنه خريج آداب قسم إنجليزي. فشجَّعني ذلك علي أن أسأله عن قراءاته فقال إنه أحياناً يقرأ " الشبكة"، ولعل ذلك لم يمنعني من سؤاله عما قرأ لشكسبير أو ديكنز أو ت.س.إليوت، فقال إن هذه الأسماء لا تعنيه وسألني عن حاجته لقراءة هؤلاء.

فسألني كيف هي فقلت: " مثل بيرجيت باردو غير أنها شقراء " وقال: " يا ابن الـــ ... إيه !" وحدَّق في وجهـــي مليـــاً، وهـــو يـــدفع درَّاجته إلي الأمام، غير أني لم أكن أنظر إلي وجهه وكنت منهمكاً في تأمل طوب الأرض، والجواميس الرابضة حوله، والبنـــات الرابـــضات فوق الزعازيع المكدسة علي ظهور الحمير، وكانت ثمة فتيـــات فـــي أزياء ملونة ونظيفة يخترقن الطريق من جهة لأخـــرى، وكـــان هـــذا التباين في مظهر البنات دافعي لتأمل البيوت حـــول الطريـــق .. كـــان بعضها واطئاً تماماً وكالحاً وملطخاً بالطين وروث الماشية، وكانت ثمة بيوت مدهونة ومرتفعة إلي حدٍ ما، وكانت رغم ما بها مـــن شـــرفات وشبابيك تبدو كسجون أثرية. وكان الطريق متربا وكنت إلي حدٍ كبيـــر راغباً في الصمت والتدخين والهدوء. غير أن كرم كان مُـــصرَّاً علـــي طرح الأسئلة، وكان قد سأل: " وتعرفت عليها كيف ؟" وأجبـــت بأنهـــا قصة طويلة، وأن هذا الأمر حدث في القاهرة، وقد مر عليـــه زمـــن. فعَلَّق قائلاً: " أنت مخربش " وكان قـــد قال سلفاً أنني أَليف، غيـــر أن ذلك لم يكن يعنيني في تلك اللحظة بقدر ما أنني كنت معنياً بصرفه عن طرح أسئلة أخري، فسألته عن الفريق الذي يشجعه فقال: " الأهلـــي " وراح يحكي كثيراً عن الأهلـــي ولاعبيـــه، وأن الزمالـــك لا يـــستحق التشجيع وأنه نادي " الكعب العالي " وأنه سينتحر لو هُـــزِم الأهلـــي

وكنت قد لاحظت أن كرم كفَّ عن الحـــديث وبـــدأ يلـــوك عـــود القصب بعد أن قسَّمه إلي قطع صغيرة رصَّها فوق كشكول التحـــضير علي خلفية الدرَّاجة وراح يسحب قطعة وراء قطعـــة بيـــده اليـــسرى وباليمن كان يدفع درَّاجته إلي الأمام، وكان فيما بدا لي شخـــصاً رثـــاً

كانت مباراة بين فريق بلدنا وفريق " عزبة النُّــورَج " وكانــت المباراة علي أرضنا .. تَجمَّع كل عيال البلد حول الملعب وجهَّزوا كــل

كان فريق بلدنا متحفزاً لخوض المعركة، وكان فيما بدا مستعدَّاً للنصر بدستة أهداف، خاصة أن المباراة مقامة علي أرضنا وبين جماهيرنا، وأعلامنا المرفوعة .. وكان واضحاً أننا سنفوز خاصة أن

لهذا كان يبدو عليهما الاستهتار بنا باعتبارنا صبية، حتى لأن استهتارهما تخطي اللعِّيبة إليَّ أنا كحَكَمٍ. فبعد أن ضربت القرعة وكانت لعبة البداية من نصيب فريقنا، وقبل أن أضع إصبعي في فمي وأصفر صفارة البدء وجدت " علي المشد " علي يمين السنتر و " خيري أبو سماعين " علي شماله يناولان الكرة لبعضيهما ثم ينطلقان إلي ملعب الفريق الخصم .. شمال فيمين .. ويمين فشمال، ودقيقة أو أكثر ووجدت الكرة في شبكة الخصم .. هنالك ارتفعت المطارق، وهاجت الأعلام، وارتفع الصياح، وتزاحمت الأرجل، ووجدت الملعب يتحول إلي سوق الأربعاء، ووجدت " علي المشد " و " خيري أبو اسماعين " محمولين علي الأعناق، ووجدتني أنا – أيضاً – ولسبب غير مفهوم محمولاً علي الأعناق، ولسبب غير مفهوم – أيضاً – كنت أضع إصبعيَّ في فمي وأصفر بشدة.

بعد أن هدأت الحركة، وعاد الملعب إلي هدوئه، وقفت عند نقطة السنتر، ووضعت إصبعيَّ في فمي وأطلقت صفارتي، وأعلنت بدء المباراة وليس استئنافها. اعترض فريقنا، وقالوا: – ماذا ؟، قلت: ليس هناك " جول " ولا يحزنون، لأني وباعتباري حكماً لم أكن قد أطلقت صفارة البداية عندما تبادل المشد الكرة مع خيري، وأنهما تصرفا كما لو كانت المباراة بدون حكم.

احتدَّ فريقنا عليَّ، وقالوا في صوتٍ واحد موَّحد: " اطلع بـــرَّه "، وبالفعل فككت طرف جلبابي عن وسطي، بعد أن كنـــت قـــد حزَّمتـــه، وهممت بالخروج، لولا أن الفريق الخصم أعلن عن تمـــسكه بـــي، و أصروا علي بقائي حكماً وإلا فسينـــسحبون. ولأن فريقنـــا لا يـــود أن ينسحب الفريق الخصم قبل أن يمرغ رؤوس هـــؤلاء الجرابيـــع فـــي التراب، ويمتع الجماهير المحتشدة بدستة أهـــداف فـــي مرمـــاهم .. تنازلوا عن رغبتهم في طردي ووافقوا علي بقائي حكمـــاً للمبـــاراة، وبدوري أَعَدْتُ ربط طرف جلبابي حـــول وســـطي، وجمعـــت قطبـــي الفريقين وقلت لهما: – دعونا نتفق أن لا اعتـــراض علـــي قـــرارات الحكم، فوافقا، وبدأت المباراة بداية حقيقية عنـــدما أطلقـــت صـــفارة البداية. ولكن – وفيما بدا – أن أمر إلغاء الهـــدف لـــم يكـــن يعجـــب جماهيرنا، فقد سمعتهم يهتفون: " شيلوا الحكم، وحطوا عـــصاية " .. هكذا أصبحت " العصاية " أفضل مني، ولكن ذلك لم يكن أبداً مـــدعاة لأن أنصرف بذهني عن متابعة المباراة التي تدور رحاها أمامي .. ولم أكن باعتباري حكماً أتحدث مع اللاعبين .. فقط كنت أضع إصبعيَّ في فمي، و أطلق الصفارات .. وبعد كل صفارة كنـــت أعقـــف ســـبابتي وأنكتها في الأرض، إشارة مني إلي موضع الكرة، ثم أعتدل بقـــامتي سريعاً، وأفرد ذراعي باتجاه الضربة .. وهكذا سارت المباراة ســـيراً حسناً لفترة، لولا أنني فجأة سمعت " علي المشد " يسب الدين للاعـــب من الخصم، فحذرته، ولكن يبدو أن " علي المشد " كان مصَّراً علـــي الاستهانة بي، ، فقال: " طز فيك " .. تمالكت أعـــصابي، و اســـتأنفت

حقيقة .. استمر الصراع بيننا طويلاً، وتدخل الأهل في الموضوع الذي انتقل إلي المصاطب والدِّكَكَ وظل حديث الجميع لسنوات، كانت عائلة المشد مصَّرة علي أن ابنها لم يكن مخطئاً، وأن الخطأ هو خطئي أنا عندما رضيت أن أحكم المباراة وأنا – لمؤاخذة – بقرة، لا تفهم في الكرة، وكانت عائلتي ترفض هذا الادعاء وترد: العريان شاطر في الدراسة، ويحتل دائماً الترتيب الأول آخر العام ويفهم في الكرة وفي كل شيء .

بالطبع وحرصاً مني علي أن تسير المباراة سيراً حسناً طلبت من أخوَيَّ أن ينهضا من فوق صدر " علي المشد " بينما فض بعض أفراد الفريقين الشجار المؤقت، ورفعوا المشد من فوق الأرض، وسحبوه إلي خارج الملعب، وقالوا: " قرارات الحَكَم محترمة " وأسرُّوا إليه: إنْ كان ثمة غليل في الصدر فليشفه فيَّ بعد المباراة.

هنالك نفضت رأسي، وفركت عينيَّ ووضعت إصبعيَّ في فمي، وأطلقت صفارة الاستئناف .. وفيما بدا أن الفريق الخصم قد شم نَفَسَه بعد طرد " علي المشد " وبدأ يسيطر قليلاً علي وسط الملعب، وبدأت الكرة تتحرك لصالح الفريق الخصم نحو مرمانا، وكان المرمي عبارة عن ثلاث خشبات صفصاف مربوطة في بعضها بالحبال، ولم تكن من شبكة في الخلف، وعند أول كرة صوَّبها واحد من الفريق الخصم إلي مرمانا وجدتها تفلت من يدي حارس المرمي إلي الداخل .. هنالك وضعت إصبعيَّ في فمي، وأطلقت صفارة مُدويَّةً، وأشرت بسبابتي نحو الهدف، ثم بإشارة أخري إلي " السنتر ". بالطبع حارس مرمانا

حقيقة أنا رأيتها تنـــزلق من يدىِّ الحارس إلي أسفل داخل الـــ "ثلاث خشبات " وهكذا فيما يبدو هـــي " جـــول ". لكـــن حمحمـــات الجماهير في الخارج وتحفزها لفعل شىء ما خطير جعلتني أرتاب في الأمر، وتمنيت لو أن حكماً غيري يمكنه أن يتخذ قراراً بـــشأن هـــذه الكرة تحديداً .. في تلك الأثناء سمعت واحداً من الفريق الخصم يردد: " ينصر دِين الحكم "، وسمعت آخر يقول: " قرارات الحكم محترمـــة "، بيد أني سمعت واحداً من فريقنا يرد عليهم: " دا مش حكم .. دا عيِّـــل أعمي " وأمام هذا الاتهام بالعمى تمسكت بقراري، وقلـــت: " الملعـــب غير قانوني، والمرمي غير قانوني " وتساءلت عـــن الـــشبكة، وعـــن الخطوط الأرضية، والجير الذي يؤطر الملعب ويقسِّمه، وتساءلت عن حاملي الراية، وعن النجيل. وقبل أن أنهي تساؤلاتي رأيت واحداً مـــن فريقنا يضرب كفاً بكف ويردد: " العريان اتجنن يا ولداه "، غير أنـــي رأيت خيري أبو سماعين يتجه نحوي كفيل صغير، وقد برقت عينـــاه بالشر، وما أن وصل إلي موضعي حتى سدد لكمة قوية إلي صـــدري وقال: " غور .. حكِّم في الزمالك .. إنت عامل فيهـــا حكـــم يـــا ابـــن الفرطوس ".. وما أن سمع أخي الذي يلعب ضمن الفريق مقولة " ابن الفرطوس " حتى تناول خيري أبو اسماعين من قفاه، وشده فجأة إلي الخلف، فوقع علي الأرض وارتطمت رأسه بزلطـــة كبيـــرة، فـــشُجَّت

كنا قد فارقنا أنا وكرم جسر ترعة الفؤادية، ووصلنا إلي السنطة التي تتوسط الطريق بين الجسر ومحطة القطار .. وكان الطريق قد خلا تماماً من أرجل الدواب والناس في هذه المنطقة التي لم يبدأ بها كسر القصب، حتى لأن الطريق بدا موحشاً وسط القصب الذي يميل بشواشيه علي الجانبين، ولم يكن غير الهسيس، وحفيف الشواشى التي تهزها رياح الظهيرة، وكنت أحس كما لو أن الشمس متسلطة علي رأسي التي لا تكف عن نتح العرق. وكان كرم يجر درَّاجته عن يساري ولم يكن يعَلَّق علي ما يسمعه بأكثر من قوله: "ها .."، وكنت مستمراً في سرد واقعات المباراة. وفي لحظة ما نظرت فيها إليه، لاحظت لأول مرة أنه يبدو كما لو كان أرنباً برياً أسود .. وأنه قزم صغير لا تكاد يداه تصل إلي أعلي درَّاجته، فيما لاحظت أيضاً أن أنفه أفطس وأن أذنيه تتهدلان كما لو كانتا لجحش صغير.

تركته يسبقني وأنا أتابع النظر إليه من الخلف .. كان يرتدي بنطلوناً من " الجينز " تتوزع عليه بعناية قطع من الحديد وبعض المسدسات الصغيرة، وكان مشبوكاً فيه من الخلف سلسلة تتدلى منها مفاتيح كثيرة فوق مؤخرته، فيما بدت مؤخرته كما لو كانت مؤخرة جَدْيٍ صغير .. عندما وصلنا السنطة سند درَّاجته عليها وجلس مستريحاً في الظل، استلقيت بجواره، وقد عرف عبق السنطة طريقه

وهكذا لعب فريقنا ناقصاً اثنين من " الفراودة ". وكان عليـــه أن يجاهد للمحافظة علي مرماه .. لذلك كانت خطته في الـــشوط الثـــاني دفاعية فقط، وكان الهواء ضدنا، وكان الفريق الخصم أكثـــر ســـيطرة علي المباراة .. لكن الذي حدث أن خيري أبو اسماعين بعد أن طردته ذهب علي الفور لاستدعاء واحد من جيل الكبار هو " سيد أبوالداهش" .. وطلب فريقنا التغيير .. أخرجوا أخي الذي كان يلعب في خط الوسط ودخل مكانه " سيد أبوالداهش "، وكان أبوالداهش متحمساً لفعل شيء ما خطير، وكان يبدو كبغلٍ عريضٍ، وجدته يتنطط كثيراً ويقفـــز فـــي الهواء، وينطلق إلي قلب ملعب الخصم يبرطع كيفما شاء، ويشير إلي فريقنا بيده ويقول: " شوطوا لقدام يـــا أولاد القحبـــة " ولأن الهـــواء ضدنا، ولأن فريقنا فيما بدا كان قد تعب من الجري وهو الذي يلعـــب ناقصاً اثنين .. لم تصل كرة واحدة إلي "سيد أبوالداهش" الواقف وحده في قلب ملعب الخصم .. وجدته بعد فترة يتقهقر للخلف إلي قلب ملعب فريقنا ورفع كلتا ذراعيه وأشار إلي لاعبينا وهو يقول:" غوروا لقـــدام

اقترحت علي كرم أن نستأنف المشي، وقد استرحنا قليلاً، وأعربت له عن أنني لو مكثت أكثر من ذلك فسأنام في هذا الظل الذي يذكرني بساقية جدي وبالسدرات المنتشرة حولها .. سحب كرم درَّاجته، ومشينا باتجاه المحطة، وكان كرم صامتاً تماماً وقال: " ها ..".

سألني أبوالداهش: – ماذا ؟. فقلت له: " هاى .. يعني برَّه " .. فقال: " يلعن أبوك " ورفع يده عالياً وهمَّ بضربي، لولا أنني في اللحظة الحرجة ألقيت بجسدي علي الأرض، ولففته لفتين، وانتصبت واقفاً بعيداً عن الخطر. وفي لمح البصر كان أخواي الاثنان في مواجهة أبوالداهش تماماً وفي يد كل منهما مِطْرقٌ صغيرٌ، وأعلنوا عن رغبتهم في العراك .. هنالك تدخلت الجماهير، واقتحمت الملعب .. ولستر الله كانت الجماهير منقسمة إلي فريقين .. فريق معي أنا وأخويَّ وفريق ضدنا .. وكانت المعركة علي أشدها بين الفريقين، وكنت أنا كأرنب بَرِّيٍّ يقف خلف الجميع يتابع ما يدور، ولم يكن غير

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي اشتركت فيها في مباراة كـــرة قدم أو غيرها من ألوان الأنشطة الرياضية .. غير أنـــي أتـــذكر أننـــا وعندما كنا نقيم في محافظة الوادي الجديد حضر إلي المدرسة الثانوية التي أدْرسُ بها جمع من المسئولين والإداريـــين الرياضـــيين الـــذين يشرفون علي الأنشطة الرياضية بالساحة الشعبية .. اختاروا مجموعة من التلاميذ الراغبين في ممارسة النشاط بالساحة .. أمليتهم اســـمي وأعطوني موعداً للحضور بالساحة. وفي عصر يـــوم محـــدد ذهبـــت كغيري إلي الساحة، وكانت بالفعل ساحة جديدة مهيأة ومقسمة إلـــي ملاعب جاهزة كاملة الأدوات، وقد لاحظ المدربون أنني طويل القامـــة

كانت المحطة قد لاحت لنا، والعَرَق بدأ يتصبب من جبهتي مـــرة أخري، وكان كرم لا يزال مستمتعاً مردداً بين الحين والآخر: " هـــا .." وكنت أنا أتحدث كثيراً – علي غير عادتي – ولم أكن أدري لماذا أنـــا هكذا علي غير عادتي. وكان كرم فيما بدا متعباً ومبتلاً بالعرق، حتـــى لأنه في لحظة ما نظرت فيها إليه بدا كعِرْسةٍ خارجة لتوها من القصب .. وكانت الدرَّاجة مستسلمة لوقعتها " المنيلة " بين يديه، وفيما بدا أن إطاريها قد فرغا من الهواء، وكان الأسفلت ساخناً والشمس حاميـــة، ومن ثم كانت أرجلنا في أحذيتها كما لو كانت تسير في وحلٍ ســـاخن، وكنا قد وصلنا المحطة، وقد لاحظنا أنها خالية من البشر .. ولم يكـــن غير كلب أسود يلهث أمام مكتب ناظر المحطة، وكانت علـــي الجهـــة الأخرى ترعة تسير بمحاذاة الشريط الحديدي، وكان الهجير قـــد بـــدأ يلفح وجوهنا محملاً ببخار الماء المتصاعد من الترعة، وكان علينا أن نعبر الشريط الحديدي والجسر الموصل بين شطي الترعة إلي الجهة الغربية حيث الطريق الأسفلتى الذي يشق زراعات القـــصب الممتـــدة غرباً .. وكان علي السيارات القادمة من الغرب أن تستدير عند الجسر مع الأسفلت بمحاذاة الترعة إلي "فرشوط "، وكان علـــي " كـــرم " أن يركب درَّاجته ويتجه جنوباً باتجاه " فرشوط "، وكان عليَّ أن أنتظـــــر سيـــارة قادمة لتقلنـــي غرباً باتجاه الجبل.

التالي، وكانت الشمس قد أتمت بزوغهـــا، وبينما كان الصمت لا يزال يمارس سيادته علي الوجود نزلـــتُ مـــن السيارة عند المنحني الذي تقع محطة القطار شرقه .. وكان الندي لا يزال عالقاً بأوراق الزراعات الممتدة غرب المنحني .. وكانت الترعـــة خلفي ساجية والهواء بارداً. وكنت إلي حدٍ ما أشعر بالبرد يتسلل إلـــي أوصالى، ولم أكن قد تناولت إفطاري بعد، وكنت متأبطاً دفتر تحـــضير الدروس وكتاباً لواحد من أدباء الحداثة، وكانت يدي اليمنـــي تقـــبض علي أطراف سلة شبكية من الخيوط، تقبع بداخلها الكرة التي اشتريتها بالأمس. وكنت لا أزال واقفاً أتأمل الغيطان وكنت ميمماً وجهي جنوبـــاً فيما اتجهت سيارة كانت قادمة من الغرب .. رحت أتابعها حتى بـــدأت تغيب عن ناظري باتجاه فرشوط فيما لاح كرم راكباً درَّاجته .. بدا من بعيد كجَدْيٍ أسود يقطع الطريق وحده بين الزراعات .. وفيمـــا كنـــت أتابع حركته من بعيد كان واحد من الفلاحين قد أتـــي بحمارتـــه مـــن الخلف، لم ألحظه وهو يَنُسُّ حمارته خلفي، بيد أنه فاجأني بقولـــه: " صباح الخير ". وبينما كان قلبي يرتجف بطيئاً قلت: " صباح النـــور ". وعندما وصل كرم كان لاهثاً، وكانت كلماته متقطعة، وفيما بدا وجهـــه أكثر سواداً وكآبة، حيَّاني ونزل من فوق درَّاجته، وثبَّتَ عينيه علـــي الكرة .. ابتسم قليلاً وعرض عليَّ أن أقود الدرَّاجة وأردفـــه خلفـــي، فاعتذرت، وعرضت عليه أن نتمشى معاً حتى المدرسة فوافق بعد أن

وكنا قد دخلنا قرية " أبوشلوف"، وانحنينا مع الطريق الذي يخترقها من الشمال للجنوب، وكان علينا أن نواصل المشي لربع ساعة أخري، حتى نصل إلي المدرسة، وكنت قد أحسست بالتعب، وأن مسامير البلاتين التي تثبت عظام مفصل قدم رجلي الشمال تود الخروج من اللحم .. وكان عليَّ أن أبطئ في المسير، بينما طلبت من كرم أن يستقل درَّاجته ويسبقني إلي المدرسة فوافق .. وقال إنه سيهيئ الطابور لحين وصولي، وسألني إن كنت سألقي كلمة في الطابور فقلت: " نعم ". وكنت سعيداً لأنني تخلصت من كرم وأنني سأمشي لربع ساعة قادمة وحيداً في صمت جميل. وكنت سعيداً أكثر لأني لأول مرة في حياتي سأتحدث في طابور الصباح .. رغم أن شعوراً قديماً كان يداهمني، كثيراً ما كنت استسلم له وأنا تلميذ يقف في طابور الصباح مرصوصاً بين أجساد مرصوصة .. مسلماً وجهي للعَلَم، بينما كانت المقالات المدبجة للتلاميذ، والأساتذة تصل إلي سمعي، فأتخيل أنني سأكون واحداً منهم يوماً ما، بمواجهة هذه الرؤوس المرصوصة، وأنني إلي حدٍ ما سأكون مضطراً للخطابة .. هنالك كان شعور بالخطر يداهمني، وهنالك كان جسدي يرتعد، غير أنني وقد أصبحت الآن مدرساً لابد أن أتعود علي مواجهة الجموع، ولابد أن أرتاد الخطابة، خاصة وأنني مدرس للغة العربية والتربية

كان منكفئاً، وقد أسلم وجهه للأرض تماماً، وكانت درَّاجته ملقاة فوقه، وكان يئن، وكنت أقاوم شعوري بالخطر وأنا اســتجمع وعيــى كاملاً لفهم شيء ما .. بيد أني وبحركة لا إرادية سحبت الدرَّاجة مــن

وفيما كنت متحيراً ماذا أفعل، كانت امرأة عجوز متشحة بالسواد أتت حاملة إبريقاً، وكوباً فارغاً .. طلبت منـــى أن أســقيه، وقالــت: الأفضل في مثل هذه الحالة أن أصب الماء علي رأسه. ولم تكن لــدي خبرة لوقف الدم المتفصد من جبهة كرم، غير أني وافقت المرأة علي فكرتها ورحت أصب الماء علي رأس كرم، حتى لاحظــت بركــة مــن الطين بدأت تتشكل تحت مقعدته، غير أني لاحظت المرأة وقــد بــدأت تشق طرف شالها الأسود .. ناولتني قطعة منه، وقالت: " اربط الجرح "، فربطت .. وكان بعض الصبية قد تجمعوا حولنا، فيما عادت المرأة من حيث أتت، كنت أفكر: كيف سينتهي هذا الموقف ؟ وكــان كــرم يشتكي من آلام في الصدر. وكان يسب الدرَّاجات، وقال إنه أخطأ حين اشتري درَّاجة مستعملة، وأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه ضــغط بيــده اليمني علي الفرامل، فما كان إلا أن رأى نفسه هكذا يطير في الهــواء وينزل بصدره علي الأرض، والدرَّاجة أيــضاً طــارت فــي الهــواء، واستقرت فوقه، وفيما كان كرم يحكي تفاصيل الموقف كنت قد تذكرت

تحركت السيارة شمالاً بينما تحركت أنا يميناً، وعندما وصلت المدرسة، كان كل شيء هادئ تقريباً، وكان التلاميذ قد دخلوا إلي فصولهم، وكانت أرض الطابور خالية، بينما كان عبدالصبور جالساً علي الأريكة الوحيدة تحت الشجرة الوارفة من خلف السور.

مدام " آيات " زوجة القائم بالنِّظارة التي كانت تستعد للصعود إلي الطابق الثاني .. وقفت بجوار السلم وألقت إليَّ بتحية الصباح، وحمَدَتِ الله علي سلامة وصولي، وقالت: إن زوجها ينتظرني في المكتب. وقبل أن أدخل إلي مكتبه كنت قد لاحظت سيدة بيضاء تدخل

وكانت السيدة سعاد قد وقَّعَت أمام اسمها وانــصرفت .. وقفــتُ بعدها بجوار المكتب وقلت: " كنت أتمني أن ألقي كلمة اليوم في طابور الصباح باعتباري مشرفاً علي الإذاعة " فابتــسم القــائم بالنـــِّظارة ونهض من جلسته. سحبني من يدي وخرج إلي الفنــاء، أشــار إلـــي الشجرة الوحيدة خارج السور وقال إن أمنيته أن يضع مكبر الــصوت بين أغصانها، وأن يمد السلك هكذا غرباً باتجاه السور، وأن ينــشىء صندوقاً خشبياً يثبته في موضع ما أشار إليه بالجدار الغربي الذي يحد الفناء. وقال إن أولاد الكلب لم يفكروا بعــد فــي شــراء ميكرفــون للمدرسة، ومن ثم فإن الإذاعة معطلة منذ فترة. وقال إنــه يتمنـــي أن يكون بالمدرسة مكبر للصوت وجهاز تــسجيل ليكلــف أحــد العمــال بالحضور مبكراً لتشغيل الجهاز والميكرفون ويبــث القــرآن الكــريم بصوت الشيخ الطبلاوى.

وقال إنه يحب ســماع الطــبلاوى وغَلــوش ومحمــد رفعــت. وأضــاف: إنه يتمني أن تولد الإذاعة علي يديه في هذه المدرســة، رغم أنه يعرف أن الوزير قد منع تخصيص مصليات في المدارس، كما منع استخدام مكبرات الصوت، وقال: إنه وزير علماني وديكتــاتور. وقال: إن أحد وزراء الأوقاف سابقاً حاول منــع اســتخدام مكبــرات الصوت في رفع الآذان. وقال: إن أصوات التلاميذ أقرب إلي صــوت

وكنا قد وصلنا إلي منتصف الفناء، وكان عبدالصبور لا يزال جالساً علي الأريكة الوحيدة بجوار السور، وكان الدفء قد انتشر، وكان عبدالصبور فارداً كلتا رجليه في الشمس، وكان يتابعني بعينين ثابتتين، وفم متحفز للحديث .. رفعت يدى عالية فيما يعد إشارة للتحية، فرفع يده هو الآخر، وقال: " تفضل " وكنت أنتوي أن أشرب معه الشاي هذا الصباح لولا أن القائم بالنِّظارة كان يجذبني من يدى، ويسير بي في الفناء. قال إنه يتمني أن أساعده في موضوع الإذاعة باعتباري مديراً للإذاعة .. وإنني سأساهم معه في تأسيس فريق المذيعين من التلاميذ. وقال: إن ميزانية الإذاعة مكدسة منذ سنوات، لذلك هو يود أن أكتب له طلباً بسحب هذه المبالغ لشراء مكبر الصوت وبالباقي سوف يشترى خمسة آلاف طوبة، وبعض شكائر الأسمنت من أجل بناء الجزء الخلفي من السور. وتحدث كثيراً بعد ذلك عن إنجازاته في تأسيس وبناء هذه المدرسة، وقال: إنه كافح كفاح

وقال: إنها تشبه إلي حد كبير بنات " البندر " وإنها علـــي مـــا يسمع تعيش في شقة مثل شقق الزمالك، وأنهـــا مريحـــة، وعقليتهـــا ناضجة .. وقال: إنه يظن أنها محبة للجنس وأن زوجهـــا أفيـــونجى كبير .. وأضاف: الأفيون يساعد في إطالة اللقاء الجنسي. وســـألني عن المدة التي أقضيها في حالة إتصال جنسي فقلت: بالتقريب ساعة

وكنت صامتاً ومستمعاً وشارداً في آنٍ، وفيما لم أكن أبدي رأيــاً فيما يقول عبدالصبور لكزني في جنبي وسألني فــيم أنــت شــارد ؟ فأجبت بعدم إحاطتي بسبب شرودي، وأضفت: إنهــا عــادة ملازمــة

خرجت من المكتب إلي الدور الثاني، ودخلت من أول باب يفتح علي الممر، وكان الباب بمواجهة السلم، وثمة شبابيك ثلاثة كبيرة تستقبل الهواء البحرى القادم من الجهة الأخرى للفصل الدراسي، وكانت الحجرة طويلة بلا عرض، ولاحظت أن السبورة تحتل المسافة بين الباب والشباك، وكان عدد التلاميذ كثيفاً يزيد عن الخمسين، ولاحظت أن كل ثلاثة رؤوس تطل فوق منضدة، وكانت المناضد مرصوصة والتلاميذ متلاحمين، وكانت البنات يشغلن صفاً ونصف الصف. وكانت ملابسهن زرقاء كالحة. وكنت متوقعاً أن يقف التلاميذ لتحيتي .. ثم أقدم لهم نفسي بعد أن ألقي عليهم التحية، وكان بودي أن أتعرف عليهم واحداً واحداً ثم أتحدث إليهم عن أشياء كثيرة، وكنت أضع في ذهني مجموعة محددة من الأسئلة، كأن أسألهم: – ما هي اللغة ؟ ما هي خصائص اللغة العربية .. لماذا ندرس اللغة، ما قيمة أن ندرس قواعد اللغة ؟ وثمة بعض النصائح تتعلق بكيفية استذكار اللغة وكيف يتميز التلميذ ويتفوق .. وثمة موضوعات تمهيدية كثيرة كنت أنتوي أن أتناقش معهم حولها، غير أن شيئاً من

وقفت في منتصف الفصل، ورفعت صوتي: " سكوت ".. كررتها حوالي خمس أو ست مرات، ثم تابعتها بفعل الأمر: " قيـــام ".. وقـــف التلاميذ في أماكنهم ما عدا تلميذة واحدة، كانت فـــي مقدمـــة الـــصف الثالث أسفل الشباك تماماً .. كانت بيضاء وناهدة، وكـــان جـــسدها – فيما بدت – أكبر من سنها، وقد لاحظت أن ثيابها مميزة ونظيفـــة .. وكانت ثمة قطع ذهبية في أصابعها وشحمتى أذنيها .. ألقيت علـــيهم التحية ولم أسمع أن أحداً قد ردها. كررت التحية بصيغة أخري قلـــت: " السلام عليكم .. " وأتذكر أن اثنين فقط قالا " و عليكم الـــسلام .. ". سألت التلميذة التي لم تقف عن اسمها فأجابت وهي جالسة: " اســـمي المحروسة " سألتها عن السبب الذي حدا بها لعدم الوقوف، فأجابـــت ببرود: " ولماذا أقف ؟ ". ولاحظت أن شفتيها تتحركان كثيراً، فسألتها إن كانت تلوك شيئاً، فقالت: " لبان " .. زعقت فيها بلهجة حادة: " قيام " فوقفت .. سألتها: " ألم يكن الأجدر أن تقفي للمعلـــم ؟! " فقالـــت: "

أتذكر أن عبدالصبور أيقظني بعد منتصف النهار بقليل .. فركت عينيَّ ونهضت، استأذنت للخروج وكنت أعرف أن كرم لن يكون معي في طريق العودة، ولم أكن متيقناً تماماً أنني استطيع قطع المسافة الطويلة المتعرجة من المدرسة إلي محطة القطار .. ولم أكن متيقناً أنني سأستطيع صعود التبة العالية بين الأسفلت وشريط السكة الحديدية. واعتراني شعور بأنني ربما سقطت بين الحَلْفا النابت فوق التبة. وأنني ربما سقطت في الترعة التي تتاخم الشريط من جهة

الثالث كنت قد حضرت بعد بداية الحصة الأولي بربع ساعة .. أدركت من دفتر التوقيعات أن "كرم" لم يحضر .. وكان القائم بالنِّظارة قد سلمني جدول الحصص الخاص بي، وأفهمني أنه أسند إليَّ إحدى وثلاثين حصة بزيادة تسع عن النِّصَاب القانوني وإنني سأتقاضى عنها أجراً إضافياً. وأفهمني كذلك أن إمام المسجد سيحضر اليوم وعليَّ أن أجلس معه لأشرح له كيفية تحضير الدروس .. وكنت قد أبديت استعداداً وخرجت من مكتبه، وكانت بنت العمدة قد وقَّعت في الدفتر وخرجت أمامي .. وكان عبدالصبور كعادته تحت الشجرة وكنت أفكر في الخروج من المدرسة لشراء باكو بسكويت أتناوله مع الشاي، لولا أن عبدالصبور نادي عليَّ، وكان جالساً في مكانه المفضل علي أريكته تحت السور، وكنت مستاءً من بدء اليوم الدراسي بالجلوس تحت السور، وفيما كنت أفكر في الاعتذار عن الجلوس، قال: اجلس. فجلست .. قال إن الموضوع بسيط، وإنه يود أن يخدمني في هذا الأمر، وفيما كنت أخمن عما يتحدث عبدالصبور كان قد قال إن أم المحروسة امرأة شرسة، وإنها بالفعل كتبت شكويين، واحدة لوزير التعليم قالت فيها إن ابنتها تعرضت للعقاب البدني والإهانات اللفظية، وقال إنها حددت ثلاث أصابع في يد

هكذا كنت أتحدث إلي الرجل، ومن ثم كنت أسمعه يستغفر الله كثيراً كلما تابعت الحديث إليه، حتى لأنه استفزني بسؤاله إن كنت مسلماً أم لا .. بالطبع لم أجبه، وكان واضحاً أنه يشك في انتمائي إلي الإسلام.

بالطبع كنت مهموماً بشيء آخر غير ما فهمه الرجل، لذلك وضحت له أنني أتحدث عن ضرورة تطوير آليات فهمنا للتراث وضرورة تطوير وسائل الدعوة والوصول بالفكر إلي المجتمع، ومن ثم علي الداعية أن يكون بالدرجة الأولي مفكراً لا ناقلاً فقط. وعلينا جميعاً أن نعي بلاغة الواقع، وأن بلاغة الخطاب ليست أولي من مضمون الخطاب نفسه .. وعلي الداعية أن يكون منفتحاً علي عصره وعلومه وقضاياه، وطالبته بضرورة التفرقة بين كلمتي " داعية " و"خطيب ".

هكذا كنت أتحدث إلي الرجل في الوقت الذى كان مواصلاً استغفاره .. لست أدري لماذا كان يستهجن خطابي، ولماذا كان يستغفر الله بين كل جملة وأخرى ألقيتها علي مسامعه .. في الوقت الذي عبر القائم بالنِّظارة هو الآخر عن وجهة نظره بالقول: " شاعر مجنون " وأعقبها بضحكة مائعة، وتبادل مع الإمام النظرات .. وكان عبد الودود قد أحضر الشاي .. وكان الإمام قد بدأ حديثه .. قال إنه

أتذكر أنه وفي آخر اليوم الدراسي سحبني عبدالصبور من يدى إلى خارج المدرسة، ورأيته يتجه نحو الجهة الغربية من السور، ثم انخرط إلى أحد الدروب الضيقة، وهناك حرَّر يدى، وكنا جنباً إلي جنب، ننعطف إذ الدروب تنعطف، وكانت الطرق عفنة ومكتظة بالأكداس المكدسة من روث البهائم، وكانت أرضيتها مرتوية بماء الاستحمام والغسيل، وثمة ما جعلني أترامي إلي الماضي عندما كانت بيوت الريف هكذا جرباء كالحة مكسوة بالبوص والقش والروث .. صادفتنا بعض البيوت الخرسانية المتباعدة كان تواجدها نشازاً وسط البيوت الطينية إلا أنها لم تكن تنم على ذوق قاطنيها إذ لم تكن أبوابها مدهونة ولم تكن حوائطها مبلطة وكانت ثمة شبابيك ضيقة وشرفات صغيرة تمثل نتوءاً غير متناسق مع حجم البيوت، و ثمة ما يكسو الأسطح والشرفات: أتربة، وأعواد، وقش، وكان عبدالصبور منهمكاً في شرح خريطة الدروب والبيوت وكان كثيراً ما يردد: " هذا

وفيما كنت أتأمل الصنارة لاحظت أنه فتح صندوقاً خشبياً مهملاً في ركن الحجرة، أخرج منه زجاجة بحجم الكف، فتحها سريعاً ورفعها إلي فمه، ودلق ما بها سريعاً في جوفه ثم تجشأ، وقال إنها نوع رديء من الخمور، ولكنها المتاحة حالياً. وسألني إن كنت راغباً في شيء من هذا، فاعتذرت، وحمل كل منا صنارته وكيساً من الكتان

ألقيت الشصّ في الماء بعد أن ثبَّتُّ الطُعْم فيه. وكانت ثمة قطعة من الفلين تطفو فوق الماء كغماز " مؤشر " يتصل بالخيط .. ولم يمضِ كثير وقت حتى تحرك الغماز .. غطس غطستين أو ثلاثاً، ثم بدأ يغوص رويداً رويداً باتجاه مائل. وكان فيما فهمت من علاقتي بالصيد والأسماك أن الذي بالشصّ فك سمكة بلطية كبيرة .. استجمعت خبرتي في الصيد وأرخيت الخيط قليلاً حتى أُوهمَ السمكة أنها حرة. وفجأة رفعت بوصة الصنارة عالياً حتى أصبح الخيط مشدوداً ورحت أسحب السمكة التي تغلغل الشصّ في لحم فكها .. سحبت وكان الخيط يرتعد، وكنت أحس بثقل الصيد .. غير أني كنت متخوفاً أن أرفع الصيد عالياً حتى لا تسقط السمكة الثقيلة في الماء .. وفضلت أن أسحب، حتى وصلت السمكة إلي الشط، وقبل أن تدخل في الحلفا رفعتها فجأة وألقيت بها خلف ظهري، واستدرت بجسدي سريعاً للخلف، وألقيت نظرة شغوفة إلي السمكة .. لم تكن سمكة، وكانت لها شوارب طويلة وفرو، ولم ألحظ أن بها زعانف، وكانت عينان خرزيتان مدورتان وسط رأس أسود، وفيما بدا أن أسناناً طويلة كانت تبرز من فك واسع وعريض، وكنت قد شعرت بالاشمئزاز، غير أني أحسست بقلبي يضطرب، وثمة تخوف ما جعلني أشيح بوجهي وأرتد إلي الوراء بينما عبدالصبور كان يتأمل الصيد عن كثب، وكان فيما رأيته منحنياً نحوه،

وكنت قد سألته عن الصيد فقال إنه رأس حمار نافق، فسألته إن كان جاداً، فقال: نعم .. إن سمكة صغيرة شدَّت الشصّ نحو هذا الرأس الذى كان مستقراً في القاع، وأضاف إنه سبق أن أصطاد تمساحاً صغيراً بالصنارة لكنها المرة الأولي في حياته يرى رأس جحش يخرج من الترعة في شص، وسمعته يضحك وقال: خُذْ صنارتى، وأكمل صيدك، واسترخي بجسده علي حافة الترعة، بينما رحت أتلهي بوضع الطُعْم في الصنارة، وكانت الشمس قد بدأت انحدارها نحو مخبئها، وكانت ثمة نسمة فاترة تحرك أهداب عينىّ، بينما وجه الماء بدا كزجاج داكن، ولم تكن من حركة لموجة واحدة، وكنت كلما ألقيت الشصّ في الماء، اهتز الخيط اهتزازة خفيفة، فأخرجه مرة أخري فأجده خالياً من الطُعْم.

قلت لعبدالصبور الذي كان صامتاً، وغير واثق من جدوى رحلتنا هذه: " السمك فيما أظن صغير جداً " وفيما مَطَّ عبدالصبور شفتيه أضفت: " السمكة الكبيرة تبلع الطُعْم بسرعة ومن ثم يسهل اصطيادها " وكان عبدالصبور قد قال: " الصغار دائماً متعبون .." وفيما كنت قد انهمكت في إقناعه أننا لن نتمكن من اصطياد سمكة واحدة في هذه الترعة الصامتة، امتدت يد عبدالصبور إلي ما بين وركىَّ بحركة سريعة خاطفة، قرصني في رأسي قضيبي المنكمش .. دهشت للحظة ورحت أتفرس وجه عبدالصبور وكأنني أراه للمرة الأولي، كانت عيناه

مضى يومان

لم أذهب فيهما إلي المدرسة .. وكنت قد قضيت اليوم الأول منهما مستلقياً في الفراش، وكنت أعاني من بعض التسلخات في الركبتين و آلام في المفاصل، وكانت زوجتي قد وضعت يدها على جبهتي عصر ذاك اليوم، وقالت إن حرارتي مرتفعة، وأتذكر أنها خرجت إلي بيت أخيها، وعادت بصحبة رجلٍ لا أعرفه .. وضع يده علي رأسي، وقال: باسم الله الشافي، وراح يدلك جبهتي بإبهامه. ثم دهن فروة رأسي وظهري بماء مملح، وعضني في جبهتي وشد جلدتها إلي الخارج حتى أصدرت صوتاً مسموعاً .. هنالك طمأنني وخرج بعد أن دعا لي بالشفاء. في اليوم الثاني شعرت بتحسن طفيف في صحتي، بيد أنني شعرت أيضاً بالرغبة في رؤية كرم .. لست أدري ما الذي أتي به على خاطري عصر ذاك اليوم، وما الذي جعلني متشوقاً إلي رؤيته .. فنهضت، وطلبت من زوجتي أن تغسلني، ففعلت،

فقالت: " أنت حـــر " وأضـــافت: إنهـــا ستذهب هـــي الأخـــرى للمبيت عند أمها.

عندما نزلت من السيارة مقابل قرية " الحصواية قبلي " كانت الشمس قد اقتربت من المغيب، وكانت الجمال والحمير تسير علي الجسر الذى يربط ضفتي الترعة التي تفصل الطريق عن القرية .. وكان ثم بعـــض الصبية يحومون حول الجسر، وبعض بائعى البلح والفجل في طريـــق عودتهم إلي القرية، دخلت بين الجموع وسط هـــالات الغبـــار الـــذى يستأثر بالبراح، وكان لابد أن أسأل عن الأستاذ كرم مدرس الإنجليزية .. أتذكر أن الأفراد الثلاثة الذين سألتهم علي التوالي أعربوا عن عدم معرفتهم لشخص بهذا الاسم فى القرية، غير أن واحداً من بائعي البلح توقف بجحشه، وأشار إليَّ .. قال إنه سمعني أسأل عن كرم، فقلـــت: نعم، إنه زميلي في العمل. فقال: إن كرم هو ابنه، وإنه معروف فـــي القرية باسم " جرو ". ودعاني للركوب خلفه علي الجحش، فاعتـــذرت لكنه أقسم بالله العظيم، فركبتُ، وكان الذي تحتنا خُرجاً محشواً بالبلح والحبوب، وكان البيت الذى توقف الجحش أمامـــه صـــغيراً، ومبنيـــاً بالطوب والجريد، وكان أن نهق الجحش ففُتِحَ الباب الصغير، وخرجت منه امرأة تقترب من الكهولة، وكانت كما بدت سوداء البشرة، ترتدي السواد، أنزلَتِ الخُرْج ودخل الجحش قبلها، وانهمكـــت فـــي جرجـــرة الخُرْج إلي الداخل، بينما كان كرم يطل برأسه من باب غرفة داخلية .

فيما يبدو أن " كرم " ارتبك لحظة أن لمحنـــي .. رأيتـــه يُـــدخل رأسه سريعاً ثم يخرجها مرة أخري .. هكذا فعل ثلاث أو أربع مرات، وأخيراً خرج .. قبلني برفق، وأعرب عن سعادته برؤيتي، وســـحبني إلي الداخل .. كانت الغرفة بلا نوافذ، ومتربة، وكانت أرضيتها مكسوة بحصر الحلفا وكانت ثمة دِكَكَ ثلاث تستلقي تحت الحوائط. قال كرم إنه لا يزال يعاني من التسلخات وآلام الظهر والترقـــوة، وكانـــت جبهتـــه مربوطة بالضماد، فيما كانت عينه اليسرى مغطاة تمامـــاً، وكـــان قـــد سألني عن المدرسة وأحوالها، وكنت قد قلت إنها علي ما يرام، وكان قد سألني عن " سعاد " مُدَرِّسة التدبير وكنت قد قلت إنها متألقة، وكان أبوه قد أتمَّ ربط جحشه بالداخل، وغسل وجهه وعـــاد لـــيجلس فـــوق إحدى الدِكَكَ الثلاث، وفك عمامته وراح يعيد لفها فيما بدا رأسه أصلع، وأحمر كبلحة كبيرة. وكان قد أشار إلي كرم أن يخلع جلبابه، ورأيـــت كرم يخلع جلبابه الأزرق الداكن بينما كان يخرج والده زجاجة صغيرة من جيب صديريته. قال إن العطار قد باعه إياها بسبعين قرشاً وقـــال إنها زيت قرنفل .. واتجه صوب كوة في الحـــائط، وأشـــعل مـــصباح كيروسين .. وفيما بدت الكوة كالحة وسوداء كـــان المـــصباح يقـــذف هبابه في أجواء الغرفة، وأشار إلي كرم أن يستلقي علي بطنه، وراح يدلك ظهره وعنقه ويدهنهما بالزيت. كان وجه الأب يبدو بلون الكـــوة فيما لاحظت أن ذراعيه دقيقتان ومعروقتان، وكانت أصابعه إلـــي حـــد كبير تبدو كمخالب قط عجوز. وكان جسد كرم فيما بدا أسود. وكنت قد لاحظت أن عظامه بارزة وعضلاته ضامرة وكان مكوراً فـــوق الدكَّـــة

وأعربت عن رغبتي في الاستئذان بعد الـــشاي، ورأيـــت أن لا داعي للعشاء، ورأى والد كرم الذي كان يسعل بشدة أن الاستئذان أمر مستحيل وأقسم بالطلاق لأتناولن العشاء معهما، وقال كلاماً كثيراً علي سبيل الترحيب وأنهي كلامه بالقول: " زارنا النبي " وكان قـــد أنهـــي تدخين لفافته، ومضمض فمه، واستقبل القبلة، ودخـــل فـــي صـــلاة. وسمعته يدعو الله بصوت مسموع أن ييسر الحياة لكـــرم وأن يرزقـــه بنت الحلال، وكان كرم لا يزال عارياً إلا من سرواله، وكان يـــشاركني شرب الشاي، وكان فيما لاحظته صامتاً ومكتئباً، وكنـــت قـــد قطعـــت صمته بقولي: كيف حالك ؟ وكان قد قال إن كلاماً كثيراً سيقوله لـــى بعد العشاء.

وعندما أنهي الأب صلاته شاركنا الشاي، وقطع صمت الجلسة بسؤالي إن كنت أعطي دروساً خصوصية، فقلت: إن نشاطي في هذه الناحية معدوم، وإنني لا أمانع لو طلب ذلك منى، ولكن اللغة العربية مادة بعيدة عن هذا المجال، غير أن الوقت المتبقي بعد عملي لا يكفي لقطع المسافة بين المدرسة وبيتي، والتلاميذ الذين أُدَرِّس لهم في بلدٍ وأنا أذهب بعد المدرسة إلي بلد آخر. وقلت الوزير منع الدروس الخصوصية والتلاميذ الذين ندَرِّس لهم ليسوا ميالين للعلم ولا يرغبون في التعلم، وقلت كلاماً كثيراً وفيما يبدو أن شيئاً من خيبة الأمل قد أصابت الأب وكان يود أن يسمع كلاماً مشجعاً، ومن ثم رأيته يهز رأسه يمنة ويسرة وسمعته يمصمص شفتيه ترحماً، وهو يقول: " مثلك مثل كرم تماماً " وأضاف إن كرم مدرس إنجليزية وكان المفترض أن يكون مطلوباً للدروس الخصوصية، ولكن للأسف .. وسألته عن المانع، فقال كرم لا يزال " دلوعة " أمه وهو وحيدنا ولا يهتم إلا باللعب .. وأضاف: " لقد خَسَّرَته الكرة، وشُرْبُ الكوكاكولا والتدخين ولعب الورق " وأضاف بعد أن أنهمك في لف الدخان إن ما يتبقي من مرتب كرم ينفقه علي الدرَّاجة وشراء الكوتشات التي تنير و تنطفئ.. واستغفرَ الله، وقال إنه لأول مرة في حياته يسمع حذاءً يغني ويضيء .. وقال إننا في آخر الزمان وإن علامات الساعة الكبرى قد ظهرت وإنه يتمني أن يرى ابنه "كرم" وقد أصبح رجلاً علي قدر المسئولية ويكف عن اللعب ويعطى دروساً خصوصية حتى يجرى الخير على يده ويفتح بيتاً. ورأيته يصمت للحظة ثم يتنهد وقد عاود الحديث ولكن عن

لقد سمعت منه مفردات لم أكن قد سمعتها منذ زمن طويل مثل: الدميرة – اللُوق – الفيض – الجهادية – الملك فـــاروق – الثـــورة – عبدالناصر– الاتحاد الاشتراكي – النكسة – خورشوف – السد العالي. وحكى لي حكاية البيت هذا الذي يقيم فيه. قال إن بَرَكِة دعاء الوالدين هى السِرُّ في امتلاكه لهذا البيت. وقال إنه كان بِرْكة، وكانت أرضـــيته منخفضة وفيضان النيل الذي كان يغمر الأرض بارتفاع قامـــة الرجـــل يخلف وُحُولَةَ الأرض طوال فصل الصيف. وعند انحسار الماء كان هذا المكان يظل مغموراً بالماء وكانت تتجمع فيه الأسماك والطحالب، وقال إنه وبعد بناء السد العالي أيام المرحوم عبدالناصر ظل هـــذا المكـــان علي ما هو عليه يمتلئ بماء النشيع، وكان النـــاموس ينطلـــق منـــه كعاصفة علي البيوت .. وحكى كيف أنه أحضر فأســـاً ومقطفـــاً مـــن الخوص. وكان قد أشار إلىَّ بإصبعـــــه وردد الكلمات مـــرة أخري: " فأســـاً، ومقطفاً من الخوص ". وإنه كان كل يوم من الـــصباح حتـــى المساء يملأ المقطف بالتراب من حواف الترع والمصارف ويعود بهـــا إلي البِرْكَة .. سنوات قضاها الرجل في ردم البِرْكَـــة.. كـــان يحكيهـــا وكانت طريقته في النبر والجرس تنم عن معاناة دفينة، لقد كان يتكـــئ علي بعض الحروف فيظهر مخارجها مجسداً حالة من المرارة .. قـــال إن معاناته ليست في ردم البِرْكَة ولا في السنين التى قضاها في عملية الردم، وإنما كانت في عائلة " الحراونة " الذين تَشَبَّحوا له – علي حد

ذكريات كثيرة قالها الرجل عن البيت .. تـــاريخ مـــن المعانـــاة جسَّده أمامنا في ظلام الغرفة الذي لم يـــستطع فتيـــل الكيروســـين أن يهتكه .. وقال إنه يحلم بأن يقدم طلباً لعداد الكهرباء، وإنه يتمنـــي أن يختم حياته وقد رأى " كرم " وقد حَوَّل هذا الطين إلى مسلَّح .. وكانت

كان العشاء بطاطس وبيضاً وجبنة، وعسلاً أسود، وكانت الأواني فخارية، فيما عدا العسل كان موضوعاً في طبق من خزف. .. وكان ثمة ثلاث بصلات وحفنتان من البلح وكان الطعام مع الجوع شهياً وكان الأب يمضغ بصعوبة، ومن ثم كانت تنفرج شفتاه، وهو يتكئ علي الطعام بفكَّيه، ولم أكن ألمح أسناناً بين فكيه، وكان بين الحين والحين يتكئ بظهر كفهِّ على صدغه الضامر ويدوس بفكيه على الطعام، فيما كان كرم يزدرد الطعام كفأرة شرسة .. لست أدري لماذا تذكرت الحاج صلاح الزفتاوى الذى كان يشاركني المسكن في الكويت لعشر سنوات مضت ؟ .. كان كثيراً ما يتحدث معي عن حياة الرهبان والمتصوفة وكثيراً ما كان يردد مفردات: الأديرة – الخلوة – الصوامع – وكان دائم الحديث عن حياة الرهبان و المتصوفة القدامى وساكني الكهوف منهم .. انتابني شعور بأنني هاهنا في أحد الأديرة النائية، وأنني إلي حد كبير أتناول عشاءً مباركاً، وأن ثمة ملائكة يرفون حولنا في هذه الغرفة .. لم أستغرق وقتاً في تناول العشاء، وإنما كنت مستمراً في تناول البلح ريثما ينتهي الأب من وجبته، فيما كنت ألحظ أن يد كرم لا تكف عن التنقل، وكان ثمة أصوات وطرقعات تصدر من بين فكيه .. ولاحظت أن الأب قد رفع كوز الماء إلي فمه، ومص منه ثلاث مصات، ثم سمعته يحمد الله، ويطلق بعض الأدعية ..

ولم يمضِ "كرم" كثيراً بالداخل حتى عاد وهو يحمل صينية الشاي، وكانت ثمة أقدام تدب خلفه. قال إنها والدته، وإنها تود مصافحتي، وأراح الصينية فوق المنضدة الجريد، فيما راحت الأم تتناول يدى وتدنى فمها إليها. قالت: " مرحباً يا مولانا " وكنت أود الابتسام، وكان كرم قد لاحظ ذلك فقال إن والدته تنادى كل متعلم بلقب " مولانا " وتعتبرهم جميعاً من أهل الله. وكانت الأم قد قبَّلت يدى وجلست بجوار زوجها، فيما راح كرم يبتسم ويقص علينا آخر نوادر هذه الأيام. قال إنه دخل منذ أسبوع البيت فوجد أمه محزونة أشد الحزن وكانت إلي حد كبير شاردة، تجلس تحت الحائط وقد وضعت رأسها بين كفيها. وفيما ألقي عليها التحية لم تردها وقامت مهرولة نحو العنزة، وتناولت جسدها ضرباً بالجريدة. وكان كرم قد سألها عن السبب فقالت: إن هذه العنزة كافرة .. وفيما راح يسأل كيف تكون العنزة كافرة، ردت الأم: لأنها أكلت البخاري .. و قال: إنه ضحك بشدة لأنه يعرف أن بيتهم يخلو من كتاب " البخاري ". وقال إنه فوجئ بها تُخرج من فتحة صدر جلبابها بقايا كتاب أصفر متهالك، وهى تقول إنها لحقت هذه البقايا في الوقت الحرج، ولو تأخرت قليلاً لكانت الكافرة أكلته كله. وقال إنه تفحص الكتاب وزاد ضحكه عندما عرف أنه كتاب قديم لقواعد الإنجليزية، وفيما لاحظت أن الأم كانت مشمولة بالحياء، حاولْتُ أن ألطف من أثر ضحكاته عليها فقلت:

" أنت سيدة بَرَكَة " وقالت: " يكفيني أنني ربيتـــه وكبَّرتـــه وعلَّمتـــه " ورأيتها تتسحب من بيننا بعدما قالت: " بالإذن يا مولانا " وكنـــت قـــد أذنت لها، ولم يمض كثير حتى انسحب خلفها الأب، وبقيت أنا وكـــرم والقنديل الذي يدغش في ظلام الغرفة.

تمددتُ علي الدكَّة التي أجلس عليها بينما تمدد كرم علي الدكَّة الأخرى وراح يحدثني فيما قال إنه مهم .. قال إنه حقيقة يريد أن يمارس الجنس مع أية واحدة، وأنه منذ تخرجه فى الكلية لم يقترب من الجنس الآخر، ولم يتحدث مع واحدة منهن، غير أنه قال: إن واحدة فقط في الثانوي التجاري تأتيه خلسة بين وقت وآخر، فسألته: أين تأتيه. فقال: في الغد سوف ترى كل شىء، وقال إن هذا الأمر مهم جداً، وقال: سري جداً. وقال إنه للأسف يمارس العادة السرية بإسراف، وإنه لهذا السبب يتمني أن يهاجر إلي أمريكا، وقال إن لديه مجلات عارية أمريكية، والحياة هناك زاهية وجميلة، ورغدة وقال: " لذيذة "، والإنسان هناك حر، ومتحرر ويعيش يومه، وقال إن بعض زملائه هاجروا إلي هناك. وإنه عرف من أقاربهم أنهم حصلوا علي فرص عمل، وأنهم سيحصلون علي الجنسية الأمريكية.

وفيما كان رأسي قد بدأ يتخلى عن حيويته رويداً، وفيما كان ضوء المصباح قد بدأ يتقلص، كنت أسمع حديث "كرم"، وكان فيما وصل إلي أذني متخافتاً كما لو كان صادراً من قبر مهجور مجاور، وكان كل ما يصلني: " لذيذة – حرية، بنات، رفاهية، جنس، تحرر ،أمريكا،العز،الجنسية .." وأتذكر أنني نمت،وكان "كرم" لا يزال يثرثر .

في الصباح

كان قد سرَح الأب بجحشه إلي رزقه، وكانت الأم قد جهَّزت وجبة نشوية من البقلاوة والزلابيا، تناولناها أنا وكرم وشربنا بعدها شاياً، وكنت قد قلت تعليقاً علي حديث الليلة السالفة: بإمكانك أن تهاجر إلي القاهرة بدلاً من التفكير في الهجرة إلي أمريكا، فقال: لا .. قلت: ستجد في القاهرة التحرر والحرية والخلاعة والدروس الخصوصية وأفخاذ النساء، وصدور البنات، قال: هذا كلام مهم، والمفترض أن يحدث كخطوة أولي .. ولولا هذه الخطوة ما استطعت تدبير قرشين للسفر إلي أمريكا.

وكنت أود أن أسأله عن والدته، ووالده، وكيف سيتركهما وهو وحيدهما، بيد أني امتنعت عن هذا السؤال، لأنني كنت موقناً أن ثمة مستحيلات كثيرة تحول بين كرم والهجرة إلي أمريكا. لكنني إلي حد ما استنتجت أن "كرم" يفكر جدياً في الهجرة إلي أمريكا وقبلها يفكر في النقل إلي القاهرة. وكانت الأم قد دخلت الغرفة لحمل بقايا الطعام، وسمعتها تقول: " صباح الخير يا مولانا " وأضافت وهى تتوجه بحديثها إلي كرم بإشفاق بالغ: " لبخة الخروع مفيدة في علاج الدمامل

في الخارج كانت الشمس ساخنة، وفهمت من حرارة الطقس أننا نقترب من الظهيرة .. اتجه كرم بنا غرباً لمسافة طويلة، ثم انعطف إلي إحدى الحارات التي تعجُّ بالصبية، وسرنا معاً لمسافة قصيرة، ثم توقف أمام دكان. وكان فيما بدا عتيقاً، وكان رأس غزال محنط وبعض الورل والسحالي والثعابين معلقة جميعها علي واجهة الدكان وعلي ضلفة الباب. وكانت البضائع بداخله قليلة ومتربة. طلب لنا كرم مشروباً بارداً وعلبتي سجائر، أعطاني واحدة وقال إنها تحية لي، فيما رفع الرجل خيشة مبلولة كانت مفرودة تحت حائط الدكان، أخرج من تحتها زجاجتي مشروب .. تناولناه، لم يكن بارداً وكان طعمه قابضاً ومؤلماً إلي حد كبير .. مشينا بعد ذلك قليلاً باتجاه الجنوب ثم انعطف غرباً نحو مدق متعرج، قال إن والده يستأجر ثلاثة قراريط من أحد ملاك الناحية، وإننا سنقضي بعض الوقت فيها .. مشينا باتجاه الغرب، وكان الجو صحواً وأعصابي كانت هادئة .. وكانت ثمة حمير تمر باتجاه الشرق وكان عليها بعض الصبية، والشمس كانت ساطعة فوق زراعات القصب، وتراب المدق المتعرج كان ساجياً، وكنت صامتاً وكان كرم يثرثر، ولم أحس بطول الطريق ولا قصره، وكنا قد وصلنا إلي ترعة صغيرة، تقطع المدق باتجاه الشمال، وكانت ثمة أشجار صفصاف على حافتها بجوار الجسر الترابي الذي يربط جانبي الترعة .. تخطينا الجسر وانعطفنا مع الترعة شمالاً، وكانت ثمة مساحات

حقيقة كانت المسألة مفاجئة، وكان من نصيبي أن أبدأ معها أولاً .. لست أدري لماذا اختارتني للبدء ؟ وقالت إنني " أخلاق " جداً، وإنها تحب الأخلاق، وأضافت: الإنسان بلا أخلاق لا يساوي شيئاً، ومن ثم أعطتني رقم تليفونها وقالت: اطلبني في أي وقت. وقالت: إنني هادئ، ورزين ومثقف ثقافة عالية وقالت أشياء أخري لا أتذكرها. وقلت لها أنت جميلة ورائعة وحديثكِ لا يُملُّ وأنك مشبعة جنسياً. وسألتها عن كفاءتي الجنسية فقالت: بصراحة إنني لم استمتع مع أحد هكذا من قبل. وأضافت أنني ذو كفاءة جنسية عالية، وإنها تود أن تلتقي معي بلا شركاء. واقترحتُ عليها أن نسافر إلي الإسكندرية، فقالت: سأحاول إقناع زوجي، وسألتها عن عملها فقالت إنها لا تعمل في الحكومة وقالت إنها صاحبة أملاك والحكومة قرف.

وكان كرم فيما يبدو متلهفاً لسماع ما حدث علي السرير، فسألني عن ذلك صراحة. قلت: لم يحدث شيء غير عادي، كل ما هنالك أنني كنت أعلو وأهبط، وكانت ساقاها مرفوعتين ومنفرجتين، وكنت بينهما بهلواناً وبلطجياً وتافهاً إلي حد كبير. وأتذكر أنني غبت معها بالداخل حتى لأن صديقيَّ بدأا يشكان أنني مِتُّ بين وركيها. وكان كرم قد سألني: لماذا غبتُ معها، فقلت: لا أدري .. كنت أحاول أن أقرأ شيئاً

قلت لها كثير من النساء يشكون من الرجال، وكثيرات منهن يتزعمن جمعيات نسائية وبعضهن يمارس الكتابة في الصحف ويظهرن على وسائل الإعلام وجميعهن متفقات علي أن الرجل مجرد

وسألتها عن أسوأ الرجال في الفِراش، فقالت: الخليجيون ولكن نحن نتحملهم من أجل فلوسهم، وقالت إنها بَنَتْ عمارتها في شارع فيصـــل من جيوبهم. وأضافت: لو تركناهم لذهبوا لنساء أوربا. فقلت: عظيم هذا التفكير في استغلال ثروات العرب في الداخل. وكانت قد نظرت إليَّ بطرف عينيها وقالت: أنت صعيدي خبيث. وقالت: " إنني سكس فِلْح " وضحكَتْ. وأضافت: إنني طيب القلب وشهم.

وفيما كان " كرم " قد بدا منشرح الصدر من حديثي هذا، بدا أيضاً غير واثق مما أقول، ومن ثم سألني: لا يبدو عليك أنك عشت الحياة بالطول والعرض علي نحو ما تحكى الآن. فقلت: إنها كانت فترة انتقالية في حياتي بعد عودتي من الخارج. وكان قد سألني: هل كانت تدخن. فقلت: كانت تدخن وتشرب الخمر وتحب الرقص عارية. فقال: إنه يحب هكذا الحياة. فقلت: إنها حياة لا تنم على مسئولية، ولا يجب أن يحلم بها شاب مثله. فقال: علي العكس هي حياة الحرية والمتعة، وإن أمريكا تحتل العالم بالحرية والمتعة بجانب العمل والإنتاج. وقلت: إنهم يمتلكون حريتهم وفكرهم ووسائل الإنتاج .. وقال إنه يحلم باليوم الذي يتمكن فيه من الهجرة إلي أمريكا. وسب أمة العرب وكان ينظر بين الحين والحين في ساعته. حتى لأنه في لحظة ما بدا لي متوتراً،

وفيما كان الوقت يمر سريعاً ظننت أن كرم قد أكلته السلعوة وقد تأخر كثيراً. فنهضت من جلستي وخطوت باتجاه المكان الذي اخترق منه كرم الزراعات .. وقفت للحظة قبل الدخول وقد تنامي إلي سمعي صوت كرم وهو يقول: " اخلعي اللباس ". وكان ثم صوت نسائي يرد عليه: " كل شيء إلا اللباس ". وكان لابد أن أخترق القصب .. فسَّحت لجسدي بذراعيَّ مسرباً وسط العيدان ودخلت .. وفيما بدا المكان موحشاً ومظلماً كان ثم غبار ناعم تسلل إلي أنفي وصدري .. ظلتُ أسير رويداً متمهلاً حتى وجدتني واقفاً فوق رأسيهما.

كانت صبية يافعة في زيِّ بنات المدارس وكانت حقيبتها تحت رأسها، فيما بدت بعض ملابسها مكومة بجانبها، وكانت فيما رأيت بضة وناهدة وبيضاء، وكان كرم يغوص برأسه بين نهديها، فيما كانت إحدى ذراعية تحت رأسها فوق الحقيبة تماماً بينما كانت ذراعه الأخرى تمارس حركتها فوق جسدها فيما كانت يده تبلطج هنا وهناك

تراجعت للخلف ومن دون أن يراني أحدهما .. تراجعت بجسدي باتجاه الداخل ومن دون أن أدري أنني أتراجع للداخل .. هكذا ظننت أنني سأنتهي إلي الموضع الذي دخلت منه في الوقت الذي كان جسدي يتحرك في اتجاه مضاد. وبينما كنت مستمراً في التراجع كان الظلام يتكاثف حولي.. بينما كان كرم يتجسد في مخيلتي كأحط أنواع القرود، وتجسدت في مخيلتي صور كثيرة لأطنان من المذكرات التربوية التي

كان الطابور

قد انفضَّ لتوه ، ولم أكن قد وقَّعت في دفتر التوقيعات عندما حضر إلي المدرسة مُوجِّه المادة، وكنت قد سبق أن تعرفت عليه في منزله .. كان مرتدياً قفطاناً أبيض تحت جبة بنية، وكان يضع علي رأسه عمامة من شاش أبيض ملفوف حول طربوش ملوكي أحمر له زرٌّ من حرير أسود في منتصفه، وكان أن بدا جميل الصدغين حليق الشارب، يفوح منه العطر، يضع قدميه في حذاء بنى لامع، وكان القائم بالنظارة قد طلب لنا شاياً، وتبادل مع الموجه الحديث حول مشكلات المدرسة التي لخصها القائم بالنظارة في بعض أساليب النفي: لا توجد دورة مياه للبنات، لا يوجد فناء مناسب لممارسة أي نشاط. لا توجد حجرة للتربية الزراعية .. لا مكتبة .. لا .. لا .. وكانت اللاءات قد زادت عن حدها عندما تجاهل المُوجِّه الحديث والتفت إليَّ مباغتاً بالسؤال: هل تُصَلِّي يا عريان ؟ قلت: " وإن كان السؤال لا علاقة له بالحوار الدائر .. لا". قال: صراحة

كان الأمر مباغتاً وكان لابد أن أقف وأستدير .. وكان أن رأيت رجلاً عسكرياً متجهماً يسألني إن كنت أنا العريان، فقلت: نعم. وكان " الكلب " الذي فوق رأسه قد أفصح بجلاء عن هويته. وكنت قد سألته إن كان يريدني: فقال نعم، أنت مطلوب في قسم الشرطة .. وكنت قد سألته إن كان معه تصريح من النيابة بالقبض عليَّ فقال: لا .. وكنت قد سألته سؤالاً آخر .. إن كان قد حصل علي تصريح من نقابة المعلمين بذلك. فقال لا .. وشدني من تحت إبطي وكانت ذراعي اليسرى في قبضته ومن ثم كان لابد أن أتحرك معه.

وكنت قد أحسست برعدة خفيفة تدب في أوصالى .. ولا أدري لماذا ارتعدت ؟ كل ما هنالك أنني شعرت بالوحدة والضعف وانقطاعي عن الآخرين .. وأحسست بضربات قلبي تسرع، وكان ظني قد اتجه صوب أم المحروسة، وقلت في نفسي: " لقد فعَلَتْها ". وكان الضابط قد خرج بي من باب المدرسة وكان التلاميذ قد تركوا فصولهم وتزاحموا في الممر أمام المدرسة، وكان فيما رأيت خارج المدرسة جمع من الجنود يحيطون بالمدرسة، وسيارة نقل معتمة تقف عن كثب علي شمال باب المدرسة الحديدي. وفيما توقعت أن الأمر جَدٌّ هينٌ .. ركبت السيارة وأحاط بي الجنود المدججون .. فيما ركب الضابط في الكابينة، وتحركت السيارة إلي الأمام، بينما كانت عيناي مصوبتين للخلف ..

سأتوجه فوراً إلي غرفة المأمور، وسأحدثه عن الطريقة الشائنة التي تم استدعائي بها ، وما كان يجب أن يكون الأمر هكذا علنياً أمام تلامذتي وزملائي .. وسأوضح إلي حد مبسط أن المعلم إنما هو شخصية اعتبارية يجب أن توضع في ضمير الأمة، ولا يجب أن تنتهك كرامته هكذا علي نحو ما حدث معي ولا يجب القبض عليه إلا بعد إخطار نقابته، وأخذ موافقتها .. وسأشرح له كيف أن الضابط شدني من تحت إبطي وحشرني في سيارته وسط جنوده كالمجرمين .. وسأقول إن الأمر جد هين، وإن المحروسة تلميذتي وأنا مارست معها دوراً تربوياً، وما حدث من أمر ضربها بالعصا لم يكن انتقامياً، بل هو خطوة تربوية مألوفة مع التلاميذ المارقين علي النظام .. وإن والدتها تسرعت في الشكوى، وسأطلب منه مهلة للتصالح معها، وربما يستجيب، وسأعود إلي المدرسة بعدها لأصطحب عبدالصبور إلي أم المحروسة، وسينتهي الأمر علي نحوٍ مُرْضٍ .. هكذا رسَّمت أقوالي، وكررتها في مخيلتي مرتين، حتى تثبت في موضعها علي طرف الذاكرة، وهكذا سأحاول أن أمارس طلاقة لسانية، وبعض الاتكاء علي حروف الكلمات، وسأستخدم إلي حد كبير بعض الكلمات المؤثرة مثل: أرجوكم – سعادتكم – إن من الحكمة أن – الصلح خير – معاليكم –

انتهيت من حكايتي القديمة، وكان قد كف عن الابتسام، وقال: إن هذه الفردة التي تستلقي الآن أمامه في لفافتها هي أيضاً رمز الخيانة. فقلت: كيف ؟ ولم يجب، بل أمرني أن أتعرف علي هذه الفردة. وفيما لم أستغرق وقتاً في التعرف عليها، صِحْتُ: إنها فردة حذائي. وكان أن صاح: " رائع ".

وكنت قد بدأت التساؤل مع نفسي: أإلي هذا الحد يبدو البوليس مهتماً بشيء كهذا ؟ ورحت أرسم صورة مُثْلى للبوليس المصري الذي يكلف نفسه عناء رَدَّ فردة حذائي إليَّ .. لقد رميتها بالأمس وسط زراعات القصب، وكانت الفردة اليسرى قد انغرست في الوحل .. يا لهذه الدقة في عمل البوليس ! ويا للخدمة الجليلة .. فعلاً البوليس في خدمة الشعب .. صحيح هي مقولة قديمة قد استُبدِلت بقول آخر يضع سيادة القانون محل الشعب .. ولكنني لست مع هذه الجدلية الآن .. فالذي أمامي ضابط بوليس وفردة من حذائي وأنا .. الآن سيرد لي فردتي، وربما أرسل معي من يبحث عن الفردة الأخرى في الوحل .. صورة مثلي لعمل البوليس قد لا نجد مثيلاً لها في اسكوتلانديارد .. قال لي بهدوء: البسها. فتناولت الفردة وأرحتها علي الأرضية وأدخلت قدمي اليمني فيها فارتاحت تماماً فيها رغم الطين الذي كان لا يزال متيبساً فيها، ورحت أذكر أنها فردتي. وكان فيما بدا أن الرجل قد ارتاح لهذا الاعتراف، فقال: " رائع " وابتسم. وفيما بدا فقد أخرج

خلعتها، فتناولها مني، وأعاد لفها، وأعادها إلي درج مكتبه مرة أخري. وكان قد تبادر إلي ذهني في تلك اللحظة أنني متهم بأمر ما، وكنت قد فرغت من تناول الشاي، وكان الضابط قد أمرني بالوقوف وكان شيئاً من الخوف قد بدأ يعرف طريقه إلي صدري، وكنت قد وقفت عندما غادر الضابط مقعده، واتجه نحوي، شدني من تحت إبطي ممسكاً ذراعي بقوة، وكان عليَّ أن أنقاد.

دخل بي إلي غرفة خافتة الإضاءة كالحة الحوائط، وكان ثم رهط من الرجال مرصوصين كالتماثيل، وقد أسلم كل منهم ظهره للحائط، رصَّني وسطهم، وأمرني أن أضع يدي خلف ظهري، وأرفع رأسي عالياً، وأسحب نفساً ملء صدري، ففعلت، وكان الصمت هو الفضيلة الوحيدة التي تسود المكان، وكان أن أعطاني ظهره وخرج، وقد أغلق الباب خلفه .. وكان رأسي في تلك الأثناء قد بدأ يطرح أسئلة ملحة، وكنت عاجزاً عن أية إجابات .. كل ما كان يمكن أن أفكر فيه بعمق هو كرم .. كيف ضحي بي، ووشي بي عند زُرَّاع القصب .. ألم يُقَدِّر أنني ضللت طريق الرجوع، وأنني لم أكن أقصد أن أمرس ما مرست من زراعات برجليَّ ؟!.. كيف هُنْتُ عليه إلي الحد الذي يضعني فيه هكذا في مهب الريح، في مواجهة مع الشرطة؟.. هكذا كانت مشاعري

وفيما شعرت بثقل الوقت، وملالة الموقف، كان الضابط قد أمر المرأة بالخروج، فيما أمرني بالتخلي عن قميصي وبنطلوني، وكانت الرغبة في الامتثال للصمت قد بدأت تسيطر علىَّ، ومن ثم لم أكن راغباً في الأسئلة .. خلعت قميصي وبنطلوني، ووقفت هكذا نصف عارٍ فيما انتابني شعور غريب بأنني واحد من القرادين التي تنتشر في الحقول، وكان الضابط قد أمسك بذراعي و أمرني بالانقياد، ففعلت.

فيما كنت

أظن أنني في بيتي، كانت عيناى مغمضتين، وكان رأسي إلي حد ما ثقيلاً جداً، بينما أذناي كانتا تنقلان أصواتاً مختلفة هادئة، وفيما كنت – كالعادة – منتظراً يد زوجتي تعبث بشعري وهي توقظني من نومي صباحاً، وفيما كنت أظن أن بعض الماء الساخن في انتظاري هناك عند باب الحمام، وفيما كنت أظن أن قطعة الصابون لا تزال باقية، والمنشفة معلقة علي باب الحمام، وفيما كنت أظن أنني سأنهض الآن لأغتسل، وأشرب شاي الصباح، وأودع الزوجة والبنت الصغيرة، وفيما ظننت أن جنيهاً ونصف الجنيه لا يزالان في جيب بنطلوني الخلفي .. تحسست وجهي وكانت ثمة آلام قد بدأت أحس بها، وفيما يبدو أنني لن أستطيع فتح عيني، وكان ثم صوت يبعث علي القلق قد بدأ يخاطبني: " صَحِّ النوم يا عريان .." وكانت يدي قد استلقت جانباً وكانت ثمة برودة من سطح أملس قد بدأت أحس بها، وكان لابد أن أفرك عينيَّ جيداً، وأن أعتدل، وكنت أحس ببرودة تكاد تشل مفاصلي، وكانت يداي إلي حدِ ما ترتعشان .. وثم ما اكتشفته فجأة عندما وضعت يدي فوق رجلي، فقد كنت مبتل الثياب، وكان لابد أن أسأل .. جاهدت فتح عينيَّ وسألت: أين أنا ؟ وكان أن أتاني صوت رجل قريب: " أنت في الفندق". لكأنى إذن ما زلت في قسم

وكان فيما بدا ملكاً .. كان يجلس في مساحة ستَ عشرة بلاطة مربعة، وقال ما أن اقتربت من هذه المساحة: " حاسب " وأشار بيده إلي المسافة المربعة وقال: " هذه حدود المملكة " وكان عليَّ أن أقف علي الحدود، فيما كنت قد لاحظت أن ثمة تاجاً ورقياً علي رأسه، وكان ملوناً، وكان علي صدره صديرى موشي وكان ثم سروال طويل مذهب يغطي وركيه وكان يشرب الشاي في كوب من البلاستيك الأبيض. وقال أخرج ما في جيبك، فأخرجت له ورقتين مبتلتين قيمتهما جنيه ونصف الجنيه، وضعتهما في يده، فقال: اشكرني. فشكرته دون أدري علي ماذا، وقال إن ثمة ما يدعو للغبطة اليوم. فسألته: ما هو ؟ فأشار إلي دورة المياه التي تفتح بابها علي فراغ الزنزانة وقال إنه وهبني وظيفة في البلدية، وقال: " اشكرني "، فشكرته، وكان أمره واضحاً

وكنت قد سألت مستفسراً عما يقصدونه بـــ: " الحياة الآخرة " فقال الملك إنها الحياة خارج هذه الجدران، وأشار إلي فتحتين في أعلي الجدار الغربي وكانتا شبه مسدودتين بالأسياخ الحديدية، وكان فيما بدا أن نور النهار يعبئ جوانبهما من الخارج، وفيما كان الملك يشير إليهما قال: انظر، فنظرت، وسألني: ماذا تري ؟. قلت: علامات النهار. قال: إنها أمارات جهنم الحمراء. وقال إنني سأكون سعيداً هنا في الحياة الدنيا. وسألني إن كنت – كما يقال – مدرساً للغة العربية ؟. فقلت: نعم. قال: إذن انتظر النقل من البلدية إلي الأوقاف، وأشار إلي الركن الجنوبى الغربي من الزنزانة، وكانت ثمة مساحة خالية مبسوطة عليها بطانية ميرى سوداء. قال: هذا هو المسجد، وإنه بحاجة إلي خطيب. وكان رئيس " الدفتر خانة " قد أحضر دفتره وجلس بجواري، وكتب بعض البيانات، ثم راح يسأل: عن سني، ونوع الاتهام وأسئلة أخري تافهة، وكنت قد قلت: إنني في الأربعين، أما تهمتي ففيما يبدو أنني قتلت أحداً. وكان الملك قد أطلق ضحكة ساخرة عالية، وسألني: أولست متأكداً من التهمة ؟. قلت: نعم .. لست متأكداً، وقال: عجيب. وقلت: هكذا تبدو الحياة، مفارقة وغرائبية وعجيبة ودرامية وتمتلئ بالمتناقضات وتغشاها ظلمة من دكنة المصير وضياع الحقائق. وكان الملك قد قال: إنني أتحدث بلغة

لم تكن دورة المياه كما توقعت قذرة، بل كانت رائحتها عادية ومياهها جارية، وكان لابد أن أمارس عملاً ما، فأغلقت الصنبورين وخرجت. وكان ثمَّ واحد من العسكر قد فتح الزنزانة، وقـــــــال: " العريان " فقلت: نعم. شدني من ساعدي وخرج، وكان ثمة شغف ينتابني لأن أسأل. فسألته عن المقصد. فقال: النيابة.

حقيقة كانت أسئلة النيابة أكثر عمقاً وتركيزاً من أسئلة المباحث .. كان رجل النيابة ودوداً، وفيما بدا كان إلي حدِ ما يذكرني بناظر محطة السكة الحديدية ببدلته الزرقاء الداكنة، وأزرارها النحاسية، وكانت عيناه فيما بدتا من تحت نظارته الشفافة ضيقتين. وكان فيما لاحظت ذا أريحية وسعة صدر. لم يكن متأففاً، ولم يكن كضابط المباحث مباهياً بمظهره وسلطته .. سألني عن اسمي وسني وعملي ولم يتطرق إلي البيض والجبن والسجائر وخصيتي كرم وما إلي ذلك من إسفاف، وإنما كان أكثر تركيزاً علي التاريخ. وكنت قد لاحظت أن فردة الحذاء موضوعة بعناية فوق مكتبه علي ورق الجرائد، وكانت إلي حد كبير تحظى برعاية خاصة. وكنت قد لاحظت هدوء الرجل ولباقته في الحوار وكان فيما يبدو عطوفاً ومدققاً في كل شيء. سألني عن تورم وجهي، وعن البلل الذي يَعُمُّني، فقلت: إن ثمة أحداثاً

قلت: إنه حذاء مستورد من إيطاليا، وإنني اشتريته من أحد محلات الكويت منذ خمسة عشر عاماً، وإنه آخر ما تبقي لي من غربة عشر سنوات كاملة هناك، وكنت قد اشتريته بخمسة عشر ديناراً أي ما يعادل سبعين جنيهاً مصرياً في ذلك الوقت. وإنه لجودة خامته ولحسن صنعته عاش طوال هذه الفترة دون أن ينفتق .. والحقيقة إنني كنت محافظاً عليه، وكنت قد اخترته بنياً لأن معظم ملابسي كانت بنية أو بيضاء، وكنت معتزاً برقبته المبطنة بالحرير، ومن ثم لم أكن ألبسه إلا في المشاوير المهمة، أو عندما أكون ذاهباً لمقابلة أشخاص مهمين، وكانت زوجتي مهتمة به جداً وكانت تُلمِّعه بين الحين والحين حتى ولو لم يكن بحاجة للتلميع.

وكنت أضعه في كرتونة صغيرة بين الكتب، ولم أكن لأحسب أن فردته الأخرى ستضيع مني بهذه السهولة، وإنني حقيقة أنتوي

وكنت قد فرغت من الحديث عن تاريخ الحذاء، وبدأت في قضم الساندويتشات، وفيما بدا أن رجل النيابة كان بحاجة لسماع المزيد من تاريخ الحذاء، فطلب مني أن أقترب أكثر من الموضوع، فقلت: إنني ذكرت النقاط الجوهرية، وإن ثمة ما يمكن أن يقال كثيروكثير, لولا أنني مجهد ومن ثم فإنني عرضت ما تيسر من تاريخ الحذاء. وطلبت منه أن يمهلني بعض أيام لأعود له بسيرة ذاتية مفصلة لهذا الحذاء، مصحوبة بمذكرات تفصيلية أكثر توضيحاً ومشبعة إلي حد كبير .. وقلت إن الأمر لن يخلو من الهوامش والشروح التى قد تكون مفسرة للموضوع.

وفيما يبدو أن الأمر كان مُلِّحاً، ولم يكن بالإمكان تأجيله، وكان رجل النيابة قد طلب لي كوباً من الشاي وطلب مني أن أركز أكثر لمصلحة التحقيقات، وقال: إننا جميعاً في خدمة التحقيقات.

فقلت: إنني اشتريته من محلات " ماجيك شوز " بأحد شوارع" منطقة النقرة " بالكويت، وكان بجوار هذا المحل مطعم سمك، ولما كنت مغرماً إلي حد ما بالسمك وبهذا المطعم المكيَّف

وكنت قد انتهيت من تناول الساندويتشات، وكان رجل النيابة قد سأل سؤالاً جديداً عندما قال وهو ينظر إلي قدميَّ: لماذا لا تلبس في قدميك حذاءً ؟ وأجبت بأن الحفاء أمر غير مستهجن لدي، فقد بدأت

وهكـــذا كان يجرجرني أبي إلي التاريخ ويبسطه أمامي كالحصـــيرة، وهو يقنعني بأن الحفاء ليس عاراً، وإنه أمر طبيعي، ودليل عظمة.

وكان الذي يخجلني أنني كنت أتحدث كثيراً عن تاريخي الشخصي، في الوقت الذي لاحظت فيه أن سكرتير النيابة قد أجهدته الكتابة .. وكان فيما يبدو حريصاً علي كتابة كل ما أقوله، حتى لأنه لم يفكر في تنشيف بعض حبيبات العرق التى بدأت تسيل من فوق جبهته إلى عينيه، وفيما كان رجل النيابة يشعل سيجارة أخري، ويطرق السمع كنت أتابع الحديث عن التاريخ: " قال لي والدي مرة وقد لححت عليه

وساق لي فتوى قديمة لمفتي مصري قديم تقول: " إن موظفي جمهورية مصر العربية من مستحقي الزكاة " وهذا قدرنا وعلينا أن نحمد الله علي أية حالة، وكنت دائماً أشكر الله واستمر في الحفاء.

لهذا ليس غريباً أن يكون الأمر عوداً علي بدء، وأنا لست أفضل حالاً من والدي، فأنا عائل لأسرة، ولم أقبض مليماً بعد من الوظيفة وليس لدي ما أشتري به حذاءً. وعلي هذا أنهيت إجابتي عن سؤال رجل النيابة .. وكان فيما يبدو أن الرجل الكاتب قد أُجْهِد، وكنت قد لاحظت أنه بين الحين والحين يفرد أصابع يده التي يكتب بها، ويعيد ثنيها، فيما لاحظ رجل النيابة ذلك، فقال إنه سيسألني السؤال الأخير، وكان سؤالاً غريباً وشخصياً إلي حد كبير فيما بدا أنه مخجل أيضاً .. لست أدري كيف طاوع رجل النيابة نفسه حين سألني: – هل أنت شاذ جنسياً ؟ وكنت قد فهمت أن الرجل يحاول أن يجد مبرراً لقطع الأعضاء التناسلية لكرم. فأجبت: لا. وسألني: هل أقمت بالكويت ما يقرب من عشر سنوات ؟ فقلت: نعم. قال: الخليجيون يفضلون اللواط، فهل فعلها أحد معك ؟ فقلت: لا .. وعاد السؤال هل فعلتها أنت مع أحد ؟ فقلت: لا. هكذا كانت الأسئلة سخيفة، وكانت حقيقة تسبب لي الضيق والحرج، ولكن فيما يبدو أن الإجابات من نوع:

" نعم " و " لا " لم تعد مقنعة، لذلك قلت: ثمة أشخاص كانوا يقفون لي أحياناً في الطريق العام بسياراتهم، وكنت اتقاء للحَرِّ الشديد هناك أركب معهم، وثمة ما كان يحدث من عروض ومغريات لكي أمارس معهم اللواط، لكنني كنت أرفض .. ثمة واحد وقف لي مرة، وكان الجو شديد الحرارة فركبت، وكانت سيارته مكيفة، وكان قد ناولني بعض المناديل الورقية وقال: " نشِّفْ " فنشَّفتُ، وبينما كنت أجفف العرق مد يده فجأة إلي ما بين وركيَّ، وسألني: ما هذا ؟ وبصراحتي أجبته: " هذا قضيب رجل " قال: لا .. قلت: إذن أنت أعرف به مني .. ماذا تراه ؟. قال: " ثعبان " وثمة مـــا حدث بعد ذلك من مغريات قال: الشاليه، وقال: الخمر، وقال: مائة دينار عن كل مرة أعطيه فيها الثعبان هذا الذي يرتضيه. حقيقة كنت قد ارتجفت وعرضت عليه أن يقف بجوار " كولدير " للشرب في الطريق العام. وكان أن صدَّقني .. نزلت، وطفقت أجري بين الحواري والدروب الجانبية بين الفلل والعمارات، وكان الملعون يجري ورائي بسيارته، ويطلق نفيرها عالياً وهو يردد: " امسك الحرامي .. امسك القوَّاد ".. وفي بعض المرات كان يردد: " امسك النعال هذا " وكان لابد أن أجري، حتى احتميت أخيراً ببناية لم تكتمل، وكان حارسها مصرياً من أبناء الصعيد وكنت قد دخلت سريعاً واستجرت به، وكان قد أشار إلي كومة من الأخشاب، تمددت بجسدي تحتها لبعض الوقت، حتى أتاني الحارس وأخبرني أن الآخر قد أنصرف.

قصصت علي رجل النيابة هذه القصة، وكان قد سجلها سكرتيره علي الورق، وكنت قد سئمت من الحديث في هذا الأمر، فاقترحت علي الرجل أن يكون الفيصل في هذا الموضوع هو الكشف الطبي عليَّ حسماً للخلاف. وفيما يبدو أن اقتراحي كان مطروحاً مسبقاً قبل أن أقترحه، لذلك أنهي تحقيقه معي، وقد قرر حبسي علي ذمة التحقيقات، كما قرر إحالتي إلي الكشف الطبي لتقرير ما إذا كنت شاذاً أم لا، وكذلك لتحديد مسئوليتي عن أفعالي .. هذا ما عرفته من الشرطي الذي كان يحمل أوراقي عائداً بي إلي محبسي.

كان الملك

قد أصدر فرماناً بنقلي من البلدية إلي الأوقاف، وكان عليَّ منذ لحظة صدور القرار أن أتولي الخطابة في المسجد ظهيرة الجمعة. وما عدا الجمعة فقد كنت أنام لوحدي في المسجد، وكنت سعيداً بهذا القرار، لأنه يمثل لي إعفاء من الخدمة في دورة المياه، خاصة أن ثمة دغش قد أصاب عيني، وهرش في يدي قد بدأ يزعجني، وقد كانت تنبيهات الملك واضحة بشأن الخطبة .. قال فيما أملاه عليَّ شفاهة: لا تذكر في الخطبة ما يمكن أن يذكرنا

في ذلك اليوم وكنت قد تناولت الغداء مع الملك، وفيما كنت منهمكاً في إدخال عود ثقاب بين أسناني، جاء أحد العسكر وفتح الزنزانة وقال: " تعالي يا عريان ".

اتجهت صوب الباب الحديدي، وكنت قد شعرت بالقلق، وقد كان في نيتي أن أنام قيلولتي في المسجد، ولما خرجنا وأقفل الباب كانت

قالت: إنها تعبت كثيراً من السؤال عنى، حتى أرسل لها القائم بالنظارة عامل المدرسة وأخبرها أنني هنا. وقالت إن ثمة أقوالاً تتردد في البلد بأنهم سيحولون أوراقي إلي المفتي. وسألتني عن العلاقة بين أوراقي والمفتى. فقلت إنهم يحتاجون إلي توقيع المفتي علي أوراق مدرسي اللغة العربية، وإن الأمر يجب ألا يشغلها. وكانت قد وضعت يدها في فتحة صدر ثوبها وأخرجت خطاباً صغيراً، ووضعته في يدي وقالت إنها قرأته، وقد جاء فيه أن مديرية الثقافة قد رشحتني للمشاركة في فعاليات مؤتمر أدباء الأقاليم الذي سيعقد بعد أسبوعين. فقلت لها: إرسلي لهم إنني مأسور، وإنني في حاجة إلي محامٍ وإلي الفلوس، وكانت زوجتي قد ناولتني كيساً ورقياً قالت إن به بيضاً وجبناً من النوع القريش وثلاثة أرغفة شمسية، وبعض قرون الفلفل الأخضر، فشكرتها، وطلبت منها الكف عن تناول البيض والجبن ولبس الأحذية لأنها جميعاً تجلب الشؤم، وشكرتها علي اهتمامها، وأوصيتها بالبنت الصغيرة. وقلت لها إن الموضوع كبير والقضية صعبة، وإنني

رأيتني وهو الجالس علي طبلية الطعام وحيداً يلغ في الطبيخ وكان الذي أمامه رغفان ولحم، وكنت بين عشرة إخوة نجلس جميعاً علي مصطبة مجاورة ننظر إليه، صامتين، تلتقط آذاننا قرقعة شفاهه وهي تزدرد الطعام، و صوصوة بطوننا الفارغة، ولا يطالعنا غير قفاه الأملس حين تنصرف أعيننا قليلاً عن الطعام، متلهفين إلي لحظة انتهائه من وجبته، مأسورة أنوفنا برائحة اللحم الذي يستقر في طاجن الفخار، وكان متجهاً نحو القبلة، مستغرقاً في ملكوت اللذة حتى استكفي وما تبقي من اللحم شيئ، حتى جلسنا ما أن قام وبدأنا نلتهم الرائحة المتبقية، جلس هو علي نفس المصطبة وراح يطالعنا وقد أصدر فرمانه: كل واحد يأكل نصف رغيف فقط ! .. أتذكر أنني قمت غاضباً ولم أكن قد تناولت شيئاً.

أتذكره وقد قام إلي الوضوء، وظل طويلاً يتلذذ ببرودة الماء حين ينساب علي وجهه وساعديه، وحين يتخلل شعره إلي جلدة رأسه .. كنت أتابعه وهو يسبغ الوضوء تماماً، وهو يتمتم في سره ببعض الأدعية، وحين يقوم إلي الصلاة يَسْبَح فيها طويلاً، أو ليخشع مثلما يجب الخشوع .. هكذا كان أبي يتوضأ ويصلي .. لكنه أبداً لم يكن يعرف غير الجنس والطعام والصلاة والحديث الشريف: " الابن وما يملك مِلك لأبيه " .. وظلت أمنيتي طويلاً معلقة .. ولم أكن أتمني غير أن أكون رابع اهتماماته .. حتى لأنني كنت قد كبرت والتحقت بكلية الطب .. يومها قال لي أبوك مات .. قالها ليتخلص من مسئوليته، وربما لبخله أيضاً .. هل كان أمامي غير أن أترك الدِّراسة، وأنصرف إلي البحث عن واحد من أصدقائي المقتدرين ليقرضني مبلغاً يكفي لسفري إلي خارج الوطن ؟!.

كيف مات أبي رغم أنني أراه يرفع عقيرته للصلاة خمس مرات في اليوم .. وكيف يكون ميتاً من يتلو كتابك صباح مساء في غرفته المدهونة بالجوع إلي لحم زوجته و الطعام ؟!

أتذكره لا يبرح غرفته كثيراً إلا ليقولها في وجهي: اخرج من بيتي .. إلي أين يا الله وقد كنت طفلاً .. لكأنما صوتك في صوته كان يقول: اخرج من دنياي .! – كم ليلة بتُ فيها تحت عربة جاز مركونة أمام بيت قديم .. وكم مرة عدت إلي البيت بعد غياب ليلتين لأجده لا يزال في غرفته يتلو كتابك ؟! .. ثم إذا تَعِبَتْ حنجرته من التلاوة خرج إلي المسجد ليؤم الناس في الصلاة .. كم كان خطيباً رائعاً ما أن يفرغ

ولم يكن الزمن صالحاً لفعل شىء ذي قيمة فالتحقت بالثانوية العامة من جديد وها أنا الآن بلا قيمة: مجرد معلم للغة العربية .. طز .. هزائم تخرج من رحم الهزائم، وآباء كالكلاب المسعورة ينقصها الكفُّ عن ادعاء الإيمان بالله ويعوزها الوعي بالتربية .. بالحياة .. هؤلاء وحدهم الساخطون علي الحياة، المنجذبون إلي غيبوبة الموت .. الخادمون لحواسهم رغم ذلك .. هؤلاء وحدهم سيصنعون توجهات وزير التعليم !، حين يكون هدفه إرضاء أولياء الأمور .. أية أمور ؟

نطحت وجهه عدة نطحات حتى تشرشخت أنفه وسال دمه غزيراً فوق البلاط .. رميت به خارج حدود المملكة وأعلنتها صريحة: " أنا الملك ".. هكذا أنا أعلنها صريحة: أنا لا أصلح للإمامة، لكنني قد أصلح للمملكة .. إن تهمته السرقة وتهمتي القتل، كلانا إذن يصلح ملكاً، بيد أنني رجل متعلم وهو جاهل لا يمكنه أن يدير شىءون الرعية – مثلي – علي نور، وبدأت أول خطبة لي من فوق عرش المملكة، كنت جالساً علي الوسادة الوحيدة في الزنزانة وكنت أقول: أيها المواطنون دعوني أنظم أموركم علي مبدأيِّ العلم والشورى ..

وأصدرت أول فرمان مَلَكيٍّ بتعيينه حارساً خصوصياً للملك وأعطيته لقب " الفسَّاء " وبعض الصلاحيات، واستلمت منه كرتونة بيت المال، وكان بها ما يزيد عن الخمسمائة جنيه وثلاث لفات من الأطعمة المختلفة وأربعة جلابيب وثلاث علب سجائر وعلبتا كبريت وثلاثة كيلو سكر وأربعة أكياس شاي وصابونة وخمس ليمونات وشبشب، وصورة لامرأة عارية.

و أصدرت فرماناً ثانيا بتعيين المؤذن خطيباً للمسجد، وقلت له اخطب كيفما شىءت في الجنة والنار ما دمت لا تتحدث في شىءون المملكة .. وكان الفرمان الثالث: ممنوع الكلام عندما يضع الملك رأسه علي الوسادة. وأنهيت خطبتي إليهم ومدَّدت جسدي علي البلاط وأرحت رأسي فوق الـــوسادة .

وفيما كان الصمت سيد الزنزانة كان شعور بالزهو والارتياح قد بدأ يدب في صدري .. وثمة ما كان يعد اكتشافاً جديداً بالنسبة لي: بعض الشر يكفي لكي تصبح ملكاً. وثمة ما يمكن أن يكسبني الاحترام أكثر: أن تكون متجهماً طوال الوقت. هكذا حددت ملامح الفترة القادمة، وكان لابد أن أبدأ التجربة.

نهضت سريعاً، وبدوت للجميع منتصباً وسط مملكتي، وقلت: قيام .. فقاموا .. كشَّرت ملامح وجهي، وضيَّقت حدقتيَّ، وقلت: جلوس. فجلسوا .. هكذا حددت طريقة جديدة لتحية الملك.

نمت ليلتها بعد أن انفضَّت مراسم العشاء، ورأيت فيما يري النائم أن ثمة رَجُلاً كان مرتدياً زياً عربياً أبيض، يضع علي رأسه قلنسوة بيضاء، وكان واقفاً أمام كرسي عالٍ ومُذَهَّب، وكان الكرسي فوق منصة عالية، وكانت الجماهير محتشدة وكان الرجل يهتف: " الوحدة .. الكرامة .. الحرية .. قوي الشعب العاملة .. الطبقات الكادحة .. الوطن .. العروبة .. الأمة .. الديمقراطية ".. كلمات كثيرة كانت محشوة وسط خضم هائل من العبارات الحماسية، وكان فارداً كلتا ذراعيه، وكانت الجماهير تهتف، فيما كنت أنا مخترقاً الجماهير من آخرها إلي أولها متجهاً صوب الرجل، فارداً كلتا ذراعيَّ أيضاً، وكان كلانا يبسم للآخر.

عندما استيقظت في الصباح أعلنت في أرجاء المملكة عن جائزة لمن يفسر رؤيا الملك، فانبري اثنين للمهمة. الأول قال: إنني سَيُحكم عليَّ بالإعدام وسأدخل الجنة، وإن هذا الذي يبسم لي هو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي سيقابلني في الجنة. وأنهي تأويله بتهنئتي علي دخول الجنة. وفيما كان قد هنأني كان الرعية يتوافدون عليَّ لتهنئتي فرادي وجماعات.

بينما قال الثاني إنني سأهرب من السجن وسأسافر عبر الصحراء وسط الرمال والصخور والجلاميد وسأدخل ليبيا، وسأعيش هناك بقية عمري، وإن هذا الذي يهتف هو الزعيم الليبي: معمر القذافى. وسألني إن كنت قد سمعتها في المنام " جماهيرية " أم " جمهورية " فقلت: لست متأكداً. وسألني إن كنت قد سمعت كلمة: " العظمي "

حقيقة لقد تنبهت بعد هذا إلي ضرورة إصدار فرمان ينص علي تشكيل لجنة تكون مهمتها تفسير أحلام الملك. وكان عليَّ بعد هذا أن أبدأ أول يوم عمل في مملكتي بمراجعة فرمانات الأمس التي فيما يبدو كانت ليلية متعجلة. وسألت نفسي: ما الذي يضمن لي نوماً آمناً وأحلاماً هادئة وحارسي الخصوصي هو الملك المخلوع ؟! وأدركت أنني لست ذكياً في اختياري له، ومن ثم كان لابد أن استبعده من هذا المنصب، فأصدرت فرماناً بعزله من منصبه، ونقله إلي البلدية، وعينت أقدم سجينين بعده لحراستي بالتناوب ليل نهار. وانهمكت بعد ذلك في تدبيج خطبتي الثانية إلي الجماهير.

وكنا قد تناولنا الإفطار عندما وقفت وأعلن أحد الحراس أن الملك سيخطب، فَصَمَتَ المساجين ورفعوا إليَّ رؤوسهم. وبدأت أخطب، كانت خطبة مقتضبة ومركزة علي أنني في طريقي لإحداث تغيير جذري في النظام. وإن ذلك قد يحدث في الغد القريب. وإن علي المساجين أن يتفاءلوا، وإنني لن أعمل إلا ما في صالح الرعية، وما يمليه عليَّ الواجب والضمير والمصلحة العليا.

في مساء ذلك اليوم، وفيما لاحظت أن السجناء تمددوا جميعاً فيما عدا الحارس الليلي الذي بدا جالساً بجوار رأسي، وكان فيما بدا سيئ الرائحة وكانت لحيته مجعدة وبشرته داكنة، فيما لاحظت أن وجهه ملىء بالغضون والأسي، وكان ضامر الخدين، يجلس القرفصاء وقد تناعست عيناه، وفيما لاحظت أن سحنته تنز بؤساً وشروداً أمرته أن يتمدد كالآخرين، ففعلها وتمطط بجسده تحت الحائط الشرقي للمحبس.

وكنت قد جُلت ببصري علي كل الأجساد المتمددة تحت ضوء مصباح خافت وتراءت الأجساد هامدة، والوجوه مغبونة تحت أحزانها، مستسلمة إلي حد كبير لسطوة النوم، وكان الذي يصل إلي سمعي غطيط خافت وبعض التأوهات التي تنفلت من الصدور.

وفيما كنت أسأل نفسي كيف يمكن أن تتحول الحياة إلي تمثيلية هزلية يمارسها الإنسان في الأسر ؟ كنت قد لاحظت أن جسد الملك المخلوع كان يتململ بين الحين والآخر، وكان فيما بدا منكفئاً على الأرض، مخبئاً وجهه بين ذراعيه الملفوفتين.

وفيما كنت ألحظ ذلك راودني شعور ما بأن الرجل يبكي .. ووجدتني أغادر عرشي إلي حيث الأجساد المتراصة .. سِرتُ بينها بحركة بطيئة حتى وصلته، وجلست إلي جواره، وكانت ثمة مساحة ضئيلة تكفي لأن أتمدد بجواره فتمددت، و أصغيت إلي حركة أنفاسه .. كان بالفعل يبكي، وقد تأكد لي ذلك تماماً عندما سمعت نشيجه الذي كان يحـــاول أن يكتمه. هنالك لكزته في جنبه بإصبعي، فانتفض، وكنت قد قلت: أنا الملك. فقال وقد مسح دموعه: نعم. سحبته من يده فنهض، وسرت به إلي داخل المملكة، وكانت فرصة لأن نبكي معاً.

قلت له بعد أن مسح كل منا دموعه: لا يوجد ما يمكن أن نتباكى عليه في المحابس بعد ما خسرنا الحياة خارجها. وهمست في أذنه: إنني سأعلنها في الصباح جمهورية، وسأقيم نظاماً ديمقراطياً قائماً علي الانتخاب الحر، وسأقيم أول انتخابات حرة نزيهة علي مقعد الرئاسة داخل هذه الحجرة، مثل الانتخابات التي تجري في إسرائيل. وفي حالة فوزي بمقعد الرئاسة سأتحول بالمحبس إلي النظام الرأسمالي الحر، وسأسمح بالتعددية الحزبية، وسأسمح بقيام أحزاب دينية علي غرار الأحزاب الدينية في إسرائيل، وشرحت له أن الصهيونية التي دوخت العالم هي في الأساس حركة دينية سياسية، وإننا يجب أن لا ننظر إلي الحركات الدينية السياسية في بلادنا علي أنها غول سيلتهمنا. و كانت تلك آخر رغباتي أفضيت بها إليه، فيما لاحظت أنه كان فاغراً فاه، وفيما لاحظت أنه منفصل تماماً عن

في الصباح وبعدما تناولت وجبة الإفطار، ألقيت علي الجموع المتراصة أمامي خطبة لي، بيد أنها كانت آخر خطبة في عهد حكمي، لأني بعدها أعلنت قيام الجمهورية، وقلت كما قال " جان جاك رسو " إن الحاكمية عقد بين الحاكم والمحكومين، يلتزم فيه الأول بالمحافظة علي مصالح المحكومين وحياتهم، وحقوقهم في الحياة الحرة الكريمة، ويلتزم فيه الثاني بالطاعة والولاء. ومن ثم فإنني أفتح باب الترشيح لتحمل مسئولية الرئاسة ،والدخول مع الجماهير كطرف في العقد، وعلي الجماهير أن تختار من تري أنه يصلح لإبرام العقد معه.

وفيما بدا أن الجماهير التي صفقت لي في نهاية الخطبة، لم تكن تعي جيداً ما أقول، وربما لم يعد يعنيها أصلاً ما أقول .. لذلك لم ينبر للترشيح علي مقعد الرئاسة في مواجهتي غير الملك المخلوع. وعليه فقد أحضرت كرتونة فارغة وبعض القصاصات، رسمت علي كل قصاصة كفاً وقدماً، وكنت قد اخترت الكف، و أعطيت الآخر القدم.. وأجريت الانتخابات الحرة، وكانت إلي حد ما سرية ونزيهة، وكان الذي أسفرت عنه النتيجة أن الكف لم تحصل إلا علي صوت واحدٍ من الأصوات، فيما حصل الآخر علي لقب الرئيس. وكان أول فرمان يصـــدره بعد توليه الرئاسة هو تحويل الجمهورية إلي مملكة مرة أخري، وهتف بأعلى صوته وهو يقف داخل حيز المملكة: "أنا الملك " .. فيما وقفت مشدوهاً أرقب التغييرات السريعة المتلاحقة .. وكان

حقيقة .. كانت لحظة قاسية، وكان أشد ما يؤلمني هو شعوري بأن أفكاري ستموت معي، هاهنا في دورة المياه، ولم أجد ما أقوله وأنا أنسحب غير أن أتلو الآية الكريمة: " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة " .. حقيقة رددت كلمة " أذلة " عدة مرات ودخلت دورة المياه، فيما أحسست بدمعة كانت تفر من عيني اليمني .. فرت في الهواء وكانت العين اليسرى قد بدأت تدمع، وكنت قد بركت كجَدْيٍ ضرير، وكان الصنبور مفتوحاً، وكنت قد أحسست بالبلل، فيما بدأت تهاجمني روائح كريهة، وأصوات هتاف وتصفيق وتهنئة للملك الجديد .. جميعها كانت تصل إلي أذنيَّ مختلطة وزاعقة، وكنت قد بدأت أنظر إلي الخارج بعين مغبشة وكان الملك قد شَيَّع خلفي من يبول عليَّ .

قد زارتني منذ يومين، وكانت قد قالت إنها كتبت خطابات إلي كل الناس، وإنها بانتظار الردود، وسألتني: ماذا سيفعلون بي تحديداً. فقلت: فقط سيطبقون القانون عليَّ.. وسألتني إن كنت بالفعل استحق تطبيق القانون، فقلت نعم، القانـــون يطبق علي الجميع، وإنني كغيري يجب أن يطبق عليَّ القانون، ولا غضاضة في هذا البتة، خاصة وأنني رجل أديب ومعلم ومن المحبين لسيادة القانون. وقلت: إننا جميعاً في خدمة سيادة القانون، وأجهشت بالبكاء.

وفيما لاحظتُ أنها بدأت تمط شفتيها قلت: ليس النقاش هو المهم الآن .. المهم هو الإفلات من عمى القانون. وكانت قد سألتني عما أريده منها تحديداً، قلت: الفلوس. فقالت: إن أمها باعت آخر ما لديها من ذهب، وقد استطاعت تدبير مبلغ ألف جنيه، وإنها اتفقت مع محامٍ للدفاع عني .. فيما ذكرتْ أن المحامي اتفق معها علي عشرة آلاف جنيه. وكانت قد أحضرت معها بعض الفطائر والسجائر، ووضعت في يدي خمسة جنيهات، قالت إنها الأخيرة لديها، ومضت.

وكنت في هذا الصباح قد فرغت لتوى من تناول الإفطار، وكنت في محل عملي أدخن سيجارة في دورة المياه، وكانت عيناي متورمتين، وأنفي مذكوماً وكنت منهاراً ويائساً، ولم يكن من أحد يود

فوجدته يصمت لفترة وكان قد استدار بجسده، وفيما كان يود الجلوس علي الكرسي كنت قد جلست عليه، وأشرت بإصبعي إلي الباب، فيما فهم أنني أدعوه للانصراف. فقال إنه جاء لمساعدتي،

وفيما كنت أحس أن ضربات قلبي تزداد، وأن ضيقاً بالصدر بدأ يُطْبِق علي أنفاسي، وثمة ارتخاء في الأطراف بدأت أستشعره، وفيما كان عرق غزيز قد بدأ يتصبب، ودوار خفيف كنت أحس به يتزايد، كان رأسي قد تهدل، وعنقي قد التوي، والمحبس بدأ يدور، ووجدتني ارتمي بجسدي تحت الحائط، وفيما كان رأسي فوق عتبة دورة المياه تماماً كان واحد من السجناء قد سحبنى من رجليَّ بعيداً ودخل إلي دورة المياه وراح يتبرز. في تلك الأثناء كان باب المحبس قد فتح، ودخل اثنان من العسكر، وضع أحدهما سواراً من الحديد في معصم يدي اليسرى وشدني إلي أعلي .. نهضت، وكنت متثاقلاً وأنا أستند علي الحائط، وكان أن سألته عن وجهتنا، فقال: " إلي البلاج " ووضع فردة السوار الأخرى في يده هو. وسار بي، فسرت وراءه، بينما كان

صعدا بي إلي الطابق الثاني، وكان أن جلس العسكري الموثق بي علي أريكة فجلست، فيما راح الثاني يدخل مكتباً إثر مكتب .. وأخيراً أشار إلي زميله فقمنا، وحرر وثاق يدي، واقتاداني إلي الداخل.

كانت ثمة صالة واسعة، أدخلني أحدهما بداخلها وانتظر علي الباب .. قابلني عدد من الأطباء كانوا مجتمعين في انتظاري، سألوني عن صحتي بشكل عام، فوصفت لهم ما أعانيه .. قلت إنني شديد الحساسية للضوء وكثيراً ما تصيبني الصدمات النفسية والعصبية بفقدان هستيري في النطق والسمع والبصر، وما أكثر الصدمات التي تعرضت لها، وإن عيادات الأطباء التي زرتها يفوق عددها أوراق الكتب التي قرأتها، وإن نشاطي الجنسي يزداد في الخريف، وإن آخر مرة مارست فيها الجنس منذ ثلاثة شهور وكنت قد شعرت وقتها بحرقان شديد وألم في الخصيتين، وإنني أعاني من تضخم في الكبد من أثار البلهارسيا التي كنت قد أصبت بها سنوات الطفولة وإنني أعاني أيضاً من تضخم في البورستاتا وقد نصحني آخر طبيب زرته بأن الأمر خطير، وإنني أعاني من التواء وتفلطح المفاصل، وإن أول حادثة كانت في الكويت عندما سقطت من الطابق الثاني فانكسرت ساقي اليسرى في منطقة الكاحل، إضافة إلي مفصل الفخذ الأيمن والترقوة، غير أني ذكرت أن حائطاً كان قد سقط عليَّ ذات يوم أثناء سيري في الطريـــق، وكان أن انكسرت أضلاعي والترقوة للمرة

وكان واحد من الأطباء قد أمرني بالتجرد من ملابسي، ففعلت، وأمرني بالاسترخاء علي الظهر، ففعلت، فيما راح يوصل إلي رأسي بعض الأسلاك والأقراص وقال إنه سيجري لي رسم مخ فيما كنت أظن أنني أمام جهاز كشف الكذب الذي سمعت عنه من أفلام الجاسوسية.

وكان ثم طبيب آخر في انتظاري. وكان أول ما فعله أن شد كيس الصفن، وحدَّق في خصيتي كثيراً وشد قضيبي شدتين حتى لأني شعرت أنه سينخلع، ثم أمرني أن أستدير، ولست أدري بعد ذلك هل وضع أصابعه أو شيئاً آخر في فتحة الشرج، ثم أسلمني لثالث قام بفحص وجهي وعينيَّ وأسناني وأخرج لساني وشده إلي الخارج

أتذكر أننا عدنا إلي مركز الشرطة، وكان النهار قد أوشك علي الانتهاء، وعندما أدخلوني المحبس كان الظلام قد حلَّ. وكان الملك مضطجعاً فوق عرشه، وفيما كان المصباح الوحيد مضاءً .. استدعاني الملك، وكان قد سألني عن حالي، فقلت: جائع. فصرف لي وجبة عشاء، وكنت قد شكرته علي ما دفعه للبوليسيين لأجل راحتي. وشكوت له أنهم رفضوا أن يمكنوني من كوب عصير قصب، وفيما كنت أتناول وجبتي كنت أقص عليه تفاصيل الرحلة، وكنت قد أحسست ببرودة وطراوة البلاط، وكنت في مسيس الحاجة للاسترخاء، وفيما كنت قد انتهيت من وجبتي استأذنت الملك في الاسترخاء، وذهبت إلي

وفي الصباح ولم أكن قد تناولت إفطاري عندما فتح أحد العسكر الباب وأدخل رأسه إلي المحبس وقال: " العريان " وكنت قد غسلت وجهي وبدأت أميز الأصوات، فقلت: " نعم " وكان قد أشار إليَّ بيده فيما فهمت أنه يريدني فخرجت .. وضع في يديَّ الأسوار الحديدية واقتادني. ولم أكن أدري إلي أين .. لكنه ظل يشدني وكنت صامتاً ومنقاداً ولم أسأله وقد تجاوز بي حدود قسم الشرطة، فيما دخل مبني المحكمة .. صعد بي إلي الطابق الثاني وفيما كان قد وقف بي أمام أحد الأبواب سألت: باب من هذا؟ فقال باقتضاب: " وزير السياحة " وكنت قد فهمت أنه يسخر، فصمَتّ .. لكنني فهمت فيما بعد أنه قاضي المعارضات. .. كان رجلاً مسناً ووقوراً، وكان قد سألني عن حالي .. فقلت إنني سعيد بأنني أمر بتجربة غير عادية، وأتمني ألا تطول. وكان قد سألني عن: التهمة وكنت قد أنكرت معرفتي بشيء غير فردة حذائي اليمني، وكان أن أمرني بالانصراف فانصرفت إلي أيدي العسكري الذي كان لا يزال واقفاً خلف الباب.

حضر المحامي لمقابلتي، وكان قد مر أسبوع منذ أن وقعوا الكشف الطبي عليَّ، ولم تكن أية أخبار قد وصلتني من الخارج، ولم يكن ليلهيني عن الحياة غير النوم والعمل في دورة المياه والاستحمام آخر اليوم، غير ما هنالك من سماع حكايا المحبوسين الممزوجة بالكذب والأحزان، والآمال المحبطة، وبعض النكات الساخرة التي تلقي في حضرة الملك، وكانت ممارسة التدخين هي العادة الوحيدة المحببة فيما شعرت بألفة مع علبة السجائر وعود الثقاب. وكنت قد قلت لواحد جاءني يطلب سيجارة: إنك تسلبني صديقتي، التي تشتعل لأجلي. وكنت قد ألفت الحوائط وبدأت في قراءة ما هو مكتوب علي جدرانها من تواريخ وأسماء، وبدأت تشغيل قريحتي في استخلاص تاريخ المحبس ونوعية الأشخاص الذين دخلوه وفيما كنت أتوقف عند كل اسم لأتخيل أين يكون صاحبه الآن ؟ وفيما كانت الحياة قد تحولت إلي تواريخ وأرقام وحوائط ثابتة كانت قريحتي تدفعني لممارسة حياة أخري في الخيال، فيما أصبح الخيال حياة أجمل بكثير من حياة الواقع القاسى البليد، وفيما كان عقلي يؤرقني كلما بدأت ترتيب الأحداث التي مررت بها، وفيما كان عقلي يدفعني لرفض كل النتائج، كان ثمة هاتف في وجداني يملي عليَّ شيئاً آخر، وكنت دائماً استسلم له وهو يهتف في صميمي بأن كل ما حدث هو خريطة مرسومة أزلاً بكل تضاريسها ومناخها تخصني وحدي، وكان لابد أن أمر عليها خطوة خطوة حتى المنتهي.

هكذا كنت أستسلم لهواجسى وخيالاتي واستمع كثيراً لصوت عقلي ووجداني وهما يتحاوران معاً، وثمة ما كان يصم هذا الحوار عندما تتحرك غريزتي باتجاه النساء، لأجدنى مأخوذاً للسير بخيالاتي في منعطف لذيذ أملس، ملىء بأفخاذ النساء وأثدائهن، وكنت كثيراً ما أتوقف عند مواجهة واحدة معينة لبعض الوقت ثم ما تلبس ذاكرتي أن تزيحها لتستبدلها بأخرى .. هكذا كانت خيالاتي وذاكرتي معاً باتجاه الغريزة، حتى لأنني خلال أسبوع توقفت عند جميع النساء اللاتي عرفتهن طوال حياتي. ومن ثم بدأت الذاكرة تنحدر نحو أيام الشباب الأولي عندما كنت طالباً في مدارس مشتركة تعج بالفتيات اللاتي تطفر على وجوههن أمارات البلوغ وفتنة الأنوثة. وكنت قد أدركت في لحظة ما أن ثمة خدمة جليلة قدمتها الحياة لي أن جعلت حياتي محشوة بصور كثيرة لهؤلاء النسوة والبنات، وفيما أضحت كل مظاهر السجن مألوفة لديَّ كان الذي لم يصبح مألوفاً أن تخلو الحياة من النساء، فيما أمسى العذاب بالنسبة لي شيئاً آخر غير السجن الذي ألفته. وفيما كنت متوقفاً في شمال الدلتا علي شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكانت صديقتي القاهرية تتحرك أمامي علي رمال الشاطئ مرتدية مايوهاً ملوناً وكنت قد اندمجت مع لحظة منسجمة تماماً تجمع ميوعة الجسد المشرب بالحمرة والنسمات اللطاف، وكان البحر ساجياً وثمة موجة خفيفة تتحرك باتجاهنا، كان العسكري قد فتح باب المحبس وقال: " العريان ".

خرجت معه إلي الغرفة التي تفتح علي الممر الضيق بين باب المحبس والباب الخارجي، وكان أن قابلت المحامي الذي كان فيما بدا مصراً على الدفاع عني، وكنت قد لاحظت أنه بدا أكثر تعاطفاً معي .. وكان أن أجلسني علي كرسيٍّ وحيد فيما ظل هو واقفاً، وكنت قد اقترحت أن نظل نحن الاثنين واقفين، فالحقيقة الضائعة لا تستوجب منا الجلوس، وكان قد مدح منطقي في إدراك الأمور، وكنت قد شكرته. وسألته عن وضعيتي بالنسبة للقانون. فقال: للأسف، إنني مدان والقرائن جميعها ضدي، وقال إنهم جددوا حبسي، وإن تقرير الطب الشرعي ليس في صالحي، فاستفسرت عما جاء به فقال: لقد جاء فيه أنك مسئول عن أفعالك بدرجة كبيرة، وأنك شاذ جنسياً.

وكنت قد أكدت له أنني لست شاذاً جنسياً، وأوضحت له أنني واثق من هذا ولست كاذباً، فيما قلت: إنه لا توجد قوة في العالم تجبرني علي الكذب، وإنني لا أخجل من عيوبي، وأفضل أن أظهر بها علي الناس، وإنني لو كنت شاذاً لصارحته، ولو كنت قتلت كرم لكنت صارحته أيضاً. وكان قد قال: إنه لا يملك حق التشكيك في تقرير الطب الشرعي باعتباره جهة علمية موثوقاً بها تابعة لوزارة العدل، وهو عين القاضي في مثل هذه الأحوال، وإن القاضي هو ممثل العدالة في البلاد ومن ثم فلا مجال لإنكار ما جاء بالتقرير أو التشكيك فيه. وكنت قد بدأت أثور، وكانت ثورتي باتجاه الحوائط، فقد رحت أضم كفيَّ وأخبط الحوائط .. و أتساءل بصوت مرتفع: كيف أكون شاذاً دون أن أدري ؟! وكان المحامي يحاول تهدئتي عندما اقترب منى

عندما دخلت المحبس كان الملك مضطجعاً .. توجهت إليه مباشرة وسألته: كيف أكون شاذاً جنسياً دون أن أدري .. فضحك وقال: ربما فعلها أحد معك وأنت طفل. وكنت قد أشعلت سيجارة وبدأت أسأل: كيف يكون الإنسان منتهكاً دون أن يدري ؟! ووجدت الملك يبتسم في

وضحكنا معاً حتى دمعت أعيننا، وكان أن ناولني كوباً بلاستيكياً أبيض. وقال: اشرب هذه الكأس وأشعل سيجارتك ونم. هكذا .. كان علي أن أشرب الشاي وأنام .. أنام .. ولكنني حقيقة لم أنم. حتى طلبت من الملك النصيحة. فقال: ليس أمامك غير ادعاء الجنون. فقلت حتى هذه – للأسف – أقفلوا بابها في وجهي .. فقد جاء في التقرير أنني عاقل جداً. فضحك وقال: لا يبدو عليك هذا أبداً. وقلت: إنني علي استعداد للتفريط في عقلي لو كان هذا سيحل المشكلة .. فقال: أحياناً يكون الجنون منجاة من العقاب. وقلت: خذوا عقلي أيها الناس. وكان الملك قد قال ساخراً: لقد أخذ الناس منك ما يريدونه .. وسبني قائلاً: نم يا عديم الشرف.

وكنت قد طلبت منه عطلة عن العمل لمواجهة الكوارث، فوافق وأسند العمل إلي سجين آخر كانوا قد أحضروه بآخرة من الوقت. وفيما كان الملك قد عين آخر للبلدية، كنت قد انزويت بجوار باب المحبس وانهمكت في استرجاع شريط حياتي .. من البيت إلى الغيط .. إلي الكُتاب .. إلي المدرسة .. إلي المسجد .. إلي السوق .. كل

كان رجل النيابة شاباً متجهماً، فيما بدا لي متعاظماً وكان يمسك بمنشة للذباب، وكان قد اعترض علي الهيئة التي أقف بها أمامه، فقلت: إنها تريحني، مثلما أن جلسته تريحه، وتعجبت كيف أن الجالسين لا تعجبهم وقفة الواقفين، وكانت في صدري شحنة انفعال مكبوتة غير أني استشعرت في صدري قدراً من الشجاعة لمواجهة الرجل، وكان المحامي فيما بدا متحفزاً للمداخلة .. وكان القائم بالنظارة واقفاً بجوار النافذة يرمقني بنظرات حادة صامتة، وكانت المحروسة وأمها تقفان في مواجهة مكتب رجل النيابة، وكان عبدالصبور واقفاً في الركن الغربي من الحجرة، فيما كان مدرس الرياضيات يقف بجانبه، فيما لاحظت رجلاً قصيراً ونحيفاً وبلا أسنان يقف أمامها، عرفت فيما بعد أنه ناظر المدرسة.

وكان أن طلب مني رجل النيابة أن أنظر إلي الشخصيتين النسائيتين فقلت: الثانية هي تلميذتي المحروسة، وفيما أظن أن الأولي هي أمها. ورحت أتفرسها، وكانت إلي حد ما سامقة وممتلئة الصدر والأرداف، وكانت بشرتها بيضاء وعيناها كانتا واسعتين ورحت أتساءل: ما الذي دفعها إلي هذه المواجهة، وهل كنت مجرماً إلي هذا

" س، ج " .. والإجابات المحددة عن أسئلة محددة. ورفعت صوتي، وتابعت الحديث: والد المحروسة لم يعد إلي بيته منذ خمسة عشر عاماً، مذ كانت المحروسة في بطن أمها .. هو هناك في البلدان ذات الأنظمة العبودية تحت رحمة الكفيل الذي ربما خبأ جواز سفره وأطلقه فوق أرض الله بلا عمل، بلا أجر، الدولة هناك لن تعيده إلا إذا دفع غرامة عن كل سنة خالف فيها قانون الإقامة .. الكفيل لن يعيد جواز سفره إلا إذا دفع إتاوة، وهو في واقع الحال بلا فرصة عمل، وإن وجدها فالأجر لا يكفي لمعيشته .. ولا أظن بعد هذا أنني مسئول عن كل ذلك، ولا أظن أن قضيتنا غير ذلك .. وكانت أم المحروسة قد بدأت تعي ما أقول وفيما بدا أنها تنشج، كان رجل النيابة قد طلب من المحروسة أن تحكي ما حدث في دورة المياه، فقالت: إنني طلبت منها خلع سروالها فرفضتْ، وإنني حضنتها، ووضعت إحدى يدى في صدرها، والأخرى في سروالها بعد أن فككت أزرار بنطالى .. وقلت إن هذا المشهد ربما قد شاهدته المحروسة في البيت مع والدتها وأي رجل من الذين يأتون خلسة في الظلام. وسألت أم المحروسة: من أين تنفقين علي معيشتك ؟ وكان رجل النيابة قد طلب مني الكف عن الكلام وتوجيه الأسئلة .. فقلت وكان صوتي قد بدأ يرتفع: إنكم دائماً

وكان رجل النيابة فيما بدا قد امتعض من صوتي المرتفع، وفيما أظن أنه كان منصرفاً عن سماعي، ومن ثم وجدته يتجه بأنظاره إلي المحروسة، وقال: ها .. وماذا فعلتِ ؟ .. قالت: صرخت، وكان أن تصادف وجود ثلاث من زميلاتي هن: عيوشة محمد، واعتماد علوان وسنية رضوان، كن في دورة المياه .. أسرعن إليَّ، وشاهدن الأستاذ العريان وقد عرَّي جسدي، ووضع يديه في الأماكن الحساسة، وكنت قد ضحكت، وقلت: إذا كان هذا الذي حدث فدعوني أكمل لكم القصة: أم المحروسة كانت تود أن يعرف العريان الطريق إلي بيتها ؛ لتقديم الاعتذار وتطييب الخواطر علي ما بدر منه في هذه الحادثة الوهمية.

وكنت قد طلبت منه أن يصمت، وأن يبحث له عن حفنة تراب يلهو بها. ولعنت زوجتي التي اختارته للدفاع عني.

وكان قد أشار رجل النيابة إلي ناظر المدرسة وطلب منه أن يخبره بما لديه من معلومات فقال: إنه في الفترة السابقة لم يكن يحضر إلي المدرسة، لأنه كان في " خط سير "، ولكن ما سمعه يؤكد أنني شخص غير عادي، وغير سَوِيٍّ، ولو كان الأمر بيده لما اختارني للعمل في مهنة التدريس أصلاً. قال هذا وصمت فيما أشار رجل النيابة إلي " عبدالفتاح قدوم " القائم بالنظارة وطلب منه ما لديه بشأني فقال: إنه لم يكن يتخيل مطلقاً أنني مجرم إلي هذا الحد، ولم يكن يتخيل أن هدوئي الذي كنت أتحلي به هو هدوء العاصفة، وقال: إنني إنسان عبيط، لا أستمع إلي نصائح أولي الأمر، وقال: أنه كثيراً ما نصحني بعدم الجلوس مع عبدالصبور، ولكنني كنت أخالف نصيحته وأجلس تحت الشجرة مع عبدالصبور. وكانت أم المحروسة قد بدأت تنشج

وكان رجل النيابة قد سأل عبدالصبور عن معلوماته، فقال إنني رجل غريب الطباع، وإنني لم أعمل بالمدرسة سوي سبعة أيام وربع اليوم وما كان يتخيل أن تنتهي هذه الفترة القصيرة بكارثتين وقال: إن أم المحروسة رفعت شكاية أخري إلي وزير التعليم، وأنه لا يستبعد أن يعاقبني السيد الوزير بالرفت من العمل.

وكنت أريد أن أعلق علي شهادة عبدالصبور لولا أن رجل النيابة كان فيما لاحظت يريد أن يقطع عليَّ أية فرصة للحديث وكان قد أشار برأسه إلي مدرس الرياضيات وسأله عن معلوماته فقال: إنني زرته في المدينة الجامعية عندما كنا طلاباً في الجامعة، ونمت عنده ثلاثة أيام بلياليها دون أن أستيقظ، وقال إنني حاد الطباع وبوهيمي وأكتب الشعر ورفضت تناول طعام المدينة الجامعية وقلت عنه إنه نفاية، وإنني متكبر وصاحب مزاج خاص وقال إنه سمع صياح المحروسة وهي تجري خارجة من المدرسة، وقال إنني أقطع المسافة إلي المدرسة ذهاباً وإياباً بصحبة كرم، وفي وقت العمل كنت أجلس مع عبدالصبور علي الأريكة .. وهذا كل ما يعرفه عن الموضوع غير أنه أضاف بعد تلعثم: إنه لا يستبعد أن أكون قد قتلت "كرم"، واعتديت علي شرف البنت.

وكان رجل النيابة قد فرغ من سماع الجميع، ثم أمرهم بالخروج، فيما ظللت واقفاً أمامه، وكان يعيد طلبهم واحداً واحداً فيما كانوا يدخلون فرادي وينصرفون، كنت أنصرف بذهني عن سماع شيء مما يدور حولي، وكنت قد تعبت من الوقوف وكان سكرتير النيابة يكتب كل أقوالهم وكنت في مسيس الحاجة للجلوس، وفيما كنت أحس بجفاف حلقي كان رجل النيابة قد أملي علي سكرتيره الذي كان قد كتب كل شيء: " تستدعي كل من عيوشة محمد، واعتماد علوان، وسنية رضوان لأخذ أقوالهن.

قد زارتني، وفيما كانت الأسياخ بيني وبينها لاحظت أنها شاحبة ومحزونة، وكانت تحمل طفلتنا فوق صدرها وكانت قد مدت إليَّ يدها، وذرفت دمعتين، رأيتهما تتحدران علي وجنتيها الذابلتين، وفيما كانت شفتاها ترتعشان بكلام لا يود الخروج، قلت دعيني ألمس ابنتي، وأخرجت يدي من الأسياخ ورحت أعبث بوجه الصغيرة وجسدها، وكانت أمها قد قرَّبت وجهها من الأسياخ، فلثمت خدها، واستشعرت نداوته وسحره وقلت لزوجتي: يجب أن تتعودي علي غيابي، وطلبت منها أن تعتمد علي نفسها، وأن توفر مجهوداتها لابنتنا الصغيرة هذه، وأوصيتها بألا تبرح بيت أخيها، وأن تحسن معاملة أمها وأخيها فهما الأبقى لها في هذه الظروف وألا تتسبب في دخول ابنتنا المدارس، وأن تمنعها من لبس الأحذية.

وكانت زوجتي قد مسحت دمعاتها، وكفت شفتاها عن الارتعاش، وبدأت في الكلام. قالت: إنها تأمل أن يكون كلامي إليها خرافة، وأن ما نمر به مجرد كابوس سخيف سينتهي. وسنعود إلي حياتنا، وقد عادت لنا الحياة الهادئة الرائعة. وقلت : إن روعة الحياة لن تكون بغير عدالة وبغير تطبيق القانون، وها نحن نمارس الروعة ! وكانت لهجتي الساخرة لا تعجبها، فقالت: إنها ذهبت لواحد من نواب البرلمان وشرحت له الظروف وطلبت مساعدته، فأعطاها مائة جنيه، وقالت إنها ذهبت لوالدي وطلبت مساعدته فوضع في يدها ثلاثة

وكنت قد مسحتها خجلاً من أعين المحبوسين عندما دخلت المحبس، وكان العسكري لا يزال واقفاً، فوضع عليه قفلاً ومضي يقرقع بحذائه الثقيل. وكان المحبوسون منهمكين في تناول غدائهم، وكنت مقفل الشهية، فانتحيت جانباً ورحت أبكي.

هل أبكي أربعة عشر عاماً مارست فيها الحفاء وأنا طفل أحمل كتبي من البيت إلي المدرسة ؟ وثمة كيس ثقيل محشو بالكتب أُدْخِل ذراعيَّ ورقبتي في حمالته وأسير .. كنت مفعماً بآمال طوال بحجم المستقبل الذي حدثونا عنه كثيراً في المدرسة .. أم أبكي عشر سنوات أخري تلت كنت مرتدياً حذائي وكانت الخطى قد اتسعت، وكانت الخارطة تبدو ملكي تماماً، وأنا أمرح عبر تاريخ الخرائط كلها من الأقسام العلمية إلي الأدبية .. بين كلية وأخري، بين بلد وآخر ؟! .. أم أبكي عشر سنوات أخري مارست فيها الخدمة في القوات المسلحة تلاها الالتحاق بكلية التربية من أجل أن أصبح هكذا .. مجرد مدرس للغة العربية يجلس تحت الحائط في محبس يمهده للموت .. ربما لا يوجد في العمر ما يستحق البكاء غير هذه التي ودعتها علي الباب الخارجي للمحبس .. كانت عيناها تبدوان كخرزتين لامعتين تنظران إلي وجهي الذي ألفته علي فراشها، ربما لو كانت تستطيع الكلام لقالت شيئاً .. تري كيف تعبر لأمها عن رغبتها في رؤية أبيها، وكيف ستستجيب أمها وقتذاك ؟ .. كيف اختُزِل العمر إلي صفر بلغة الحساب .. و كيف إلي هذا الحد يصل الحساب ؟!

تري هل كنت واقعياً جداً عندما قلت لزوجتي: حاولي أن تتعودي علي غيابي ؟ .. أعلم أن الأمر عسير جداً عندما يتعلق بالفقد .. أعلم أنها لن تنساني بسهولة .. أعلم أنها ستعاني طويلاً .. ولكن هل كان أمامي غير أن أكون واقعياً وأدعوها إلي مزيد من العناء ؟ .. لست أدري كيف ستنسي عشر سنوات خطوبة لم يكن يعبئها غير أمل واحد،

مارست نوعاً من الهذيان علي هذا النحو، وكنت قد استدرت بوجهي إلي الحائط، فيما ظل الآكلون خلف ظهري، ورحت أمارس الحفر.

الموت .. الموت .. الموت، وانتهت السلسلة بالتساؤل لمن: ؟

هم سيعدمونني أم سيعدمون حبة العنب الوحيدة في كرمتي .. أم سيعدمون أمها تلك التي شاء حظها التعس أن تكون زوجة لي ؟ وهكذا بدأت مرة أخري أستسلم لتساؤلاتي المُلِحَّة، وكان الذي سمعته في تلك الأثناء صلصلة الباب الحديدي حين يفتحه العسكر. ودخل منه عسكري عفي، ممسكاً ببعض أوراق، وكنت قد استدرت برأسي نحوه وكان قد رفع صوته منادياً: " علي اليابس ". وقف الملك فوق بساط عرشه. وكنت قد أدرت وجهي نحوه، ولاحظت قلقه الشديد وهو يقف، وهو يقول " نعم " بنبرة مستسلمة، وكان البوليسي قد قال له: " جهز نفسك، واستعد للترحيل للسجن العمومي ". قال البوليسيُّ ذلك ودلف خارجاً وأغلق باب المحبس، ومضي .. فيما رأيت الملك يخر في موضعه كأنما تراخت أطرافه فجأة، فيما راح يحدق في جوانب المحبس .. وكنت قد لاحظت أنه كأي مَلكٍ سيغادر مملكته بلا عودة، يقلب وجهه وكفيه، ويهز رأسه، ويتنهد .. كان صامتاً وحزيناً، فيما راحت الوفود تعرب عن مواساتها ووداعها. وفيما رأيت لم يكن من واحد في المحبس متكاسلاً عن هذا الواجب غيري، لم أتحرك قيد أنملة من مكاني، فيما كنت قد استدرت بوجهي نحو الحائط، فيما كان أحدهم يجلس بجواري ويسألني: هل قمت لتوديعه ؟! وفيما لم أجبه راح يلكزني .. لكأنه كان ينبهني إلي واجب مقدس .. أعاد السؤال: هل ودعت الملك ؟ وقلت: " لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم " وقلت: " صدق الله العظيم " وقال: لست أدري لماذا تكرهه ؟!

لست أدري ما ضرني وما نفعني إن كان المحبس مِلكِيَّاً أو جمهورياً، والحال علي هذه الحال، نحن في الحالتين نعيش علي المعونات الخارجية التي تأتي من طاقة ذاك الباب الموصد، والمحبس محاصر من الخارج بالبوليسيين ؟! لكنما وعلي نحو آخر لماذا لا يكون كل ذلك لوناً من الممارسة السياسية وتعددية الرأي وممارسة حق تقرير المصير .. كانت لدي أفكار، ولكن فيما يبدو أن الأموات يفضلونها مملكة .. عتبي مُنْصَبٌّ باتجاهكم أيضاً لأنكم لم تستوعبوا فكرة الجمهورية .. الديمقراطية .. الحزبية .. حرية الرأي. فيما تفضلون الموت علي الحياة .. هكذا يستعذب الملوك موتكم .. وهكذا

هل كان الذي سقط علي رأسي بعد ذلك فردة من حذاء ؟ لست أدري .. كل ما أدريه أنهم ضربوني فانفرطت وأنني كنت في لحظة ما موثقاً من يديَّ ورجليَّ، وكان فمي مكمماً، وكان الملك قد غادر المحبس، وكان الذي يرقبني بعينين مُحَدِّجَتين من بعيد ملك جديد .. وكان رأسي يؤلمني، وكنت مبتلاً، وكان الذي حولي براز المساجين وكان يخرج من مؤخرتي الضراط.

تمت بحمد الله تعالي

2/7/31. . 1م

المؤلف:

من مواليد 1/14. /1958م بقرية القارة مركز أبوتشت محافظة قنا.

يعمل مدرساً للغة العربية بإدارة أبوتشت التعليمية.

يكتب القصة والرواية والمسرحية والشعر والدراسات الأدبية.

صدر له من قبل:

1 – رواية " الراقصة والعجوز ":

عن دار الرقي – بيروت .. عام 1986م.

2 – حلقة قصصية " تأريخ لسيرة ما / نصوص من كتاب البربـــرع ":

عن فرع ثقافة قنا .. عام 2. . . م.

له تحت الطبع:

1– " شمس " – رواية.

2– " آلهة وقرابين " – رواية.

3– " خارج البطولة " – مجموعة قصص.

4– " الحداثة النقيض " – نقد أدبي.

5– " كل شيء هكذا يبدو " – شعر.

6– " استضافة النص " – نقد أدبي.

7 – " جمهورية عتريس " كوميديا ثلاث فصول .

للاتصال بالمؤلف بشأن الكتاب علي العنوان البريدي:

مصر – قنا – أبوتشت – شارع تركي – عمارة بشري

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
2 . .2 / 9777

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory